الفصل الثانى

السيرة عند شبلى النعمانى

دراسة تحليلة نقدية

obeikandl.com

obeikandl.com

السيرة عند شبلى النعمانى

دراسة تحليلية نقدية

لقد سبق لنا تناول مؤلفات شبلى (المأمون- سيرة النعمان- الفاروق- الغزالى- سوانح مولانا روم- سيرة النبى) فى الفصل الثانى من الباب الأول والخاص بحياة شبلى ومؤلفاته، وألقينا عليها الضوء من ناحية ظروف تاليفها واختيار موضوعاتها والملابسات المحيطة بها.

كما تطرقنا كذلك إلى هذه السيّر من حيث كونها كيانات ووحدات هامة داخل البناء الهيكلى لتكوين السير فى الأدب الأردى، وفى إطار التطور التاريخى لفن السيّرة الأردية حيث تأتى هذه السيّر فى المرتبة الثانية من الناحية التاريخية بعد سيّر الطاف حسين حالى (حيات سعدى- يادكَار غالب- حيات جاويد).

وفى هذا الفصل سنطوّف بهذه السِّير من منظور ثالث أى من الناحية الفنية والنقديه ومحاولة عرض موضوع هذه السيّر رأسيا وأفقيا مع بيان أوجه النقص ومواضع التحسين وقد ترآ أى للباحث أن يقسمّ هذه السيّر من حيث الشكل والمضمون إلى مايلى :-

١- السيرة التاريخية : المأمون- الفاروق.

٢- السيرة الدينية : سيرة النعمان- سيرة النبى.

٣- السيرة الفلسفية : الغزالى.

٤- السيرة الأدبية : سوانح مولانا روم.

وسوف نرجيء الحديث عن سيرة الفاروق إلى الباب الثالث الخاص بدراسة هذه السيرة. ويمكن للباحث بعد قراءة سيّر شبلى أن يخرج بتصور عام واطار كامل لمنهج شبلى فى كتابة السيّر بأنواعها التاريخية والدينية والفلسفية والأدبية :-

أولا: تحديد منهجه فى المقدمة مع الإشارة إلى أهم الكتب والمراجع التى رجع إليها فى هذا الموضوع أو ذاك.

ثانيا تقسيم السيّر إلي جزأين. الأول ويتناول فيه حياة البطل ومؤلفاته وظروف عصره وبيئته السياسية والاجتماعية والحضارية والعلمية. والجزء الثانى يتناول أهم القضايا الفكرية والاجتماعية التى كان بطل السيرة أهم الذين يمسكون بدفتها، ويمكن لنا تأكيد هذه الفكرة بالرجوع إلى سيّر شبلى.

وفى الصفحات التالية سوف أتناول هذه السيّر فى إطار دراسة تحليلية نقدية.

obeikandl.com

السيرة التاريخية: المأمون

«المأمون»[1] هو سيرة حياة الخليفة العباسى العالم عبد الله بن هارون الرشيد وهو من أعظم الخلفاء العباسيين الذين حكموا فى تاريخنا الإسلامى وتشهد أيامه بالازدهار العلمى والسياسى والاجتماعى وأصبحت بغداد فى عصره مركزا حضاريا ترك بصماته على حضارات العالم قرونا فيما بعد. وقد عاش المأمون فى فترة زمنية تاريخية عصيبة كادت المحن والثورات تعصف بأركان الدولة العربية وتقوض بنيانها، فظهر المأمون «بطلا» مخلصا ليحمى الخلافة العربية من أطماع الشعوبية والمارقين أهل النحل والملل الشاذة وشجع الحركة التعليمية والعلمية فى عصره وبدأت فى عصره حركة ترجمة واسعة للكتب الفارسية والهندية واليونانية والقبطية وغيرها، وظل قوة صامدة أمام الأفكار والحركات المارقة.

وقد اضطلع شبلى بتدوين سيرة هذا الخليفة لتكون الأولى من نوعها فى اللغة الأردية وفى سلسلة السيّر التى كتبها. ويبدأ شبلى سيرة «المأمون» بمقدمة طويلة- صارت فيما بعد منهجا له في السيّر الأخرى- حدد فيها الأطر النظرية لمنهجه فى تدوين السيرة أولا، ثم رصد فهرسا طويلا بأهم الكتب التى سوف يستعين بها ومن ثم تصبح أداة له فى تنفيذ وتطبيق منهجه.

* أولاً: المنهج:

قسمّ شبلى الكتاب إلى جزأين، يتناول فى الجزء الأول «الحياة السياسية والاجتماعية فى عصر المأمون وتوليه الخلافة فيبدأ بتعليمه الأولى وتربيته وولايته للعهد وجلوسه على

---

(١) من الكتب التى تناولت حياة المأمون فى العربية ويمكن الرجوع إليها: مرتبة حسب تسلسل تواريخ إصدارها:-

-جورجى زيدان: الأمين والمأمون. دار الهلال. القاهرة. ١٩٠٧م.

- أحمد فريد رفاعى: عصر المأمون. دار الكتب. القاهرة. ١٩٣٧م.

- محمد صبيح عبد القادر: المأمون. دار مصر الفتاة. القاهرة. ١٩٣٩م.

-على أحمد راضى: عصر الإسلام الذهبى: المأمون العباسى. دار نهضة مصر. ١٩٧٥م.

-محمد مصطفى هدارة: المأمون الخليفة العالم: الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ١٩٨٥م.

- جلال الدين السيوطى: تاريخ الخلفاء. الطبعة الأولى. بيروت. ١٩٨٦م.

عرش الخلافة ثم حروبه الداخلية وفتوحاته الخارجية ثم وفاته- وفى الجزء الثانى يصور شبلى حالة الدولة فى عصر المأمون وعاداته وأخلاقه وصفاته وأعماله التى ذاعت شهرتها وسلم بها ملوك العالم فى عصره».(١)

و«المأمون» ليس سيرة للخليفة العباسى المأمون فحسب بل هو عصارة تاريخ بنى العباس الطويل، وإن كنا نلمح الميل الفطرى للتاريخ عند شبلى فى جميع مؤلفاته إلا أننا نجد هذا الميل التاريخى يتجلى بكل موتيفاته فى سيرة المأمون- وهى سيرة تاريخية أصلا- لذا فإن ولع شبلى بالتاريخ وفلسفته يدفعانه لفتح صفحاته وتمثل عبّره واستلهام أحداثه «واستجلاء ما استغلق على فهم المسلمين فى شبه القارة الهندية الذين لايعرفون اللغة العربية التى كتبت بها أمهات كتب التاريخ الإسلامى- بعد التغيرات الهائلة التى حدثت للخصائص القومية للمسلمين بفعل التطورات الزمنية- لذا فإنه من حق الأجيال الحالية التى نشأت وترعرعت فى ظل الأردية أن يطوروا لغتهم لتصبح قادرة على استيعاب هذا التاريخ العظيم، كما أنه من حقهم على العلماء الذين يمسكون بناصية اللغة العربية أن يساعدوهم حتى لاتظل الذخائر الأصلية للتاريخ الإسلامى مغلقة أمام أعينهم فلا يحرموا من هذه الخاصية التى تعد حقا شخصيا لهم وذلك الذى يبقى على الحماس والشعور الإسلامى حيا وإلا ما أصبح للقوم قيمة تذكر»(٢)

ويعترف شبلى بوجود نقص شديد فى كتب التاريخ الإسلامى المكتوبة باللغة الأردية بالمقارنة بما كتب عن تاريخ المغول فى الهند «حيث كتب العديد من كتب التاريخ فى الهند لكنها ركزت على أعمال الدولة المغولية بينما كان نصيب التاريخ الإسلامى ضئيلا جدا فأين هى من ذكر فتوحات الإسلام التى امتدت خلال ثلاثة عشر قرنا من الزمان ظهر فيها ما ظهر من العروش ودال فيها مادال من التيجان، فتارة تزدهر الدولة الأموية وتارة أخرى يعلو نجم الدولة العباسية، واليوم يضع الديلم تاج الحكم على رءوسهم وغدا يرتفع علم السلاجقة وتقُلب صفحات الأيوبيين فى الشام فى حين ينهض الملثمون، وبالرغم من أن هؤلاء الحكام من أسر وبلاد مختلفة إلا أن الإسلام وحّدهم وصارت أعمالهم جزءا من تاريخنا الإسلامى، فهلا إن بحثنا عن تاريخ هؤلاء الملوك نجده فى اللغة الأردية؟!».(٣)

---

(١) شبلى: المامون: دار المصنفين اعظم كرط هـ ١٩٢٦م ص٥

(٢) شبلى: المامون: ٧-٨ (٣) شبلى. المامون ٧-

هذا بالطبع سؤال استنكارى وجهه شبلى لنفسه أولا ولنا ثانية وهو يعلم- ونحن كذلك- أن الإجابة عليه بالنفى ثم يستطرد قالاً: «وبناء علي هذا كنت أريد أكتب تاريخا بسيطا ومفصلا للأسر الإسلامية التى حكمت لكن المشكلة التى واجهتنى أننى لا أستطيع أن أستقصى جميع الأسر ولم يكن عندى سبب مالاختيار أسرة حاكمة بعينها وفى النهاية قررت أن أكتب «سلسلة مشاهير الإسلام» بحيث أختار بطلا من الأبطال تميز على أقران عصره وعلى أسرته من حيث الحكم فأتناول فيها سيرته إلى جانب تاريخ الحقبة التى عاش فيها فاخترت عمر من الخلفاء الراشدين، والوليد بن عبد الملك من بنى أمية والمأمون من الدولة العباسية وعبد الرحمن الناصر من الأمويين فى الأندلس، وسيف الدولة من بنى حمدان وملك شاه من السلاجقة»(١) وهناك أسر حاكمة أخرى بالطبع وهى جديرة بالدراسة لكن شبلى كان يريد التركيز على الأسر التى لم يكتب أحد عنها فى اللغة الأردية، وهذا المشروع الذى أخذه شبلى على عاتقه تنوء به هيئة علمية بأكملها وكان على شبلى أن يبدأ بأمير المؤمنين عمر طبقا للترتيب الزمنى لكنه واجه صعوبات عديدة سنلقى عليها الضوء عند الحديث عن سيرة عمر.

*** ثانياً: الأوات:-**

واستعان شبلى فى تأليفه لسيرة المأمون بالعديد من الكتب التاريخية الموثوق بها والتى تميزت بالتأريخ للتاريخ الإسلامى وعن طريقها اطلع شبلى على تاريخ الدولة العباسية وبصفة خاصة سيرة المأمون وهى كما ذكر شبلى: «تاريخ الطبرى ومروج الذهب للمسعودى والكامل لابن الأثير وتاريخ ابن خلدون ودول الإسلام للذهبى وتاريخ الخلفاء للسيوطى وأخبار الدول للقرماتى وتاريخ ابن واضح الكاتب العباسى وفتوح البلدان للبلاذرى ومعارف ابن قتيبة والنجوم الزاهرة»(٢) وقد استفاد شبلى من هذه الكتب فى تأليف سيرته لكنه اعترف علانية بعيوب كتب التاريخ فى ذلك الوقت وتأخرها عن الكتب التاريخية الأوربية، وذلك لاهتمامها بالتفاصيل والسرد دون الاهتمام بفلسفة، التاريخ ولهذا فإن التقسيم الذى اتبعه شبلى فى سيرة المأمون وطريقة التبويب تعد جديدة تماما بالنسبة لكتب التاريخ التى تناولت سيرة المأمون.

بعد ذلك- عهد شبلى لحياة المأمون بدراسة مستفيضة للعصر المأمونى والقوى

---

(١) المرجع السابق: ٨-٩.

(٢) المرجع السابق: ١٠.

السياسية التى تنازعت للفوز بالخلافة «فذكر الخطوات الأولى لتأسيس الدولة العباسية وتحليل المؤرخين لقيام الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية والقاء الضوء على الأحداث الشهيرة حيث يعتقد أن العباسيين لم يستغرقوا زمنا طويلا للقضاء على غريمتهم الدولة الأموية إلا أن هذا الاعتقاد لايمكن أن يكون صحيحا من حيث الأصول التاريخية فتقوض قواعد هذه الدولة القوية بهذه السرعة المباغته ومن الأمور العجيبة أن يستولى الأمويون على الحكم دون العباسيين والسادات وهم أقرب الناس إلى رسول الله»(١).

ويصف شبلى إعلان السفاح عم الرسول تأسيس الدولة العباسية وإعلان الخلافة فى يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢هـ فى الكوفه «ومن ثم هزيمة مروان بن عبدالملك وهربه إلى مصر وحصاره فى كنيسة أبى صير وقتله وبذلك كانت نهاية حكم الأمويين بعد ذلك شرع العباسيون فى القتل العام حتى لم يبق رضيع من بنى أميه على وجه الحياة ولم يهدأ حماس انتقام العباسيين إلا عندما احتفروا قبور خلفاء بنى أميه ومعاوية ويزيد وعبدالملك وهشام وحرقوا عظام رفاتهم وفى تلك الأثناء هرب شخص من بنى أميه يسمى عبدالرحمن إلى الأندلس وأسس دولة قوية، وقد ظل العباسيون فى سدة الحكم خمسمائة وأربعا وعشرين سنة وجلس على عرشها سبعة وثلاثون خليفة كان ترتيب المأمون السادس فى الخلافة»(٢) وكانت نهاية الدولة العباسية عام ٦٥٦هـ.

ويبدأ شبلى «سيرة المأمون» بالحديث عن ولادته وتربيته وتعليمه الأولى وتلك الليلة العجيبة التى وقع فيها عدة أحداث هامة كان لها شأن عظيم فى تغيير وجه التاريخ وكان ولادة المأمون كانت نذيراً بالتغيير والتجديد فى أوصال الدولة العباسية. «ولد (المأمون) فى ربيع الأول سنة ١٧٠هـ وكانت ليلة ولادته ليلة عجيبة فعلاً فقد توفى الخليفة الهادى، وجلس الرشيد على العرش ثم جاء المأمون إلى عالم الوجود، وكان الخليفة المهدى قد أوصى بالعرش للهادى من بعده ثم هارون الرشيد وكان الهادى يبيت النية لحرمان الرشيد من الحكم لولا أن اختطفته يد الردى فجأة وأذهب بجميع آماله أدراج الرياح. وكان الرشيد نائما فى فراشة عندما أقبل عليه الوزير يحيى بن خالد البرمكى يبشره بالخلافة فقال له الرشيد كم تروعنى إعجابا منك بخلافتى وأنت تعلم حالى عند هذا الرجل فإن بلغه هذا فما يكون حالى؟ فقال له يحيى لقد حسم القضاء الإلهى هذه

(١) المرجع السابق: ١٢.

(٢) شبلى: المأمون: ١٨ – ٢٠.

لمسألة وآل إليك سرير الملك وفى أثناء هذا الحوار جاءته البشرى بولادة ولى العهد فكان فألاً مباركاً فقال إنى أسميته عبدالله تيمنا بمؤسس الدولة عبدالله السفاح وكانت أم المأمون جارية فارسية اسمها «مراجل» تنحدر من بادغيس إحدى مدن هراة، وقد ماتت مراجل بعد ولادة المأمون بعدة أيام فذاق المأمون الم اليتم وهو لا يزال طفلاً»(١).

وعندما اقترب المأمون من الخامسة من عمره بدأ الرشيد فى الاهتمام بتربيتة وتعليمه على يد علماء البلاط ومنهم الكسائى النحوى العالم بالقراءات والنحو، واليزيدى لتحفيظه القرآن وقد أبدى المأمون نبوغا وتفوقا وذكاء منذ صغره حتى إن الكسائى كان يتعجب من نبوغه وكان اليزيدى المدرس الخاص للمأمون والمسئول عن تعليمه قد قام بهذه المهمة بنجاح وقد عوّل شبلى فى معظم رواياته فى هذه الحقبة على روايات تاريخ الخلفاء للسيوطى، على أن المأمون اكتسب مهارات عالية فى العلم والسياسة عندما تولى جعفر البرمكى الإشراف على تعليمه من عام ١٨٢هـ وكان عالماً متبحراً إلى جانب قيامه بشئون الوزارة وقد انتهى المأمون من حفظ القرآن فى تلك الفترة وأشاد به أستاذه اليزيدى لفصاحته على الرغم من عدم ذهابه لتعلم العربية فى البادية وتلقى المأمون الفقه وعلوم الحديث على يد ائمة الفقه والحديث فى عصره مثل: «عباد بن العوام ويوسف بن عطية وأبى معاوية وأنس بن مالك إمام الحديث فى ذلك الوقت كما نال شرف التتلمذ على يد الشافعى وقد أراد الرشيد ألا يحرم المأمون من أى عالم فى عصره ولذلك عندما ذهب إلى الكوفة وكانت تعتبر آنذاك مركزاً للفقه والحديث طلبه جميع المحدثين هناك فجاءوا جميعا إلى بغداد عدا عبدالله بن ادريس ويحيى بن يونس فكانا ثابتين فى مبدأيهما وكان يقدران علمهما فلم يذهبا إلى الرشيد فامر أن يذهب الامين والمأمون إليهما لتلقى العلم»(٢).

وقد ألم المأمون بجميع علوم عصره وكان له ولع بالفقه وتاريخ الأدب وأيام العرب وكان يشارك فى مجالس سيبويه وأبى العتاهية وأبى نواس والأصمعى وأشاد الأخير بذكائه وعلمه كما بدأ المأمون فى قرض الشعر وله محاولات جادة. وبعد أن انتهى المأمون من تحصيل هذه العلوم اتجه إلى الفلسفة وكان الرشيد قد أقام داراً لترجمة الكتب العلمية وجمع للعمل فيها الهندى والفارسى والمسيحى لكى يترجموا الكتب الفلسفية والطبية من مختلف اللغات الأخرى.

---

(١) شبلى: المأمون : ٢٠ – ٢١ .

(٢) المرجع السابق : ٢٤ – ٢٥ .

ثم يتحدث شبلى بعد ذلك عن مسألة ولاية عهد المأمون وهى فى الحقيقة من المسائل التى دار حولها نقاش حاد وطويل وتناولها المؤرخون كل حسب توجهاته وميوله وتفسيره الشخصى للأحداث ودارت حرب خفية بين العنصرين العربى المؤيد للأمين والفارسى المناصر للمأمون، وقد صور شبلى هذا الصراع بقوله: «اختار الرشيد من بين أولاده الاثنا عشر ثلاثة يصلحون لولاية العهد هم: المأمون والأمين والمؤتمن، فالأمين أمه زبيدة بنت جعفر المنصور وخاله عيسى بن جعفر المنصور وكان له ثقل كبير فى سياسة البلاط وكان أكثر أعضاء البلاط وضباط الجيش من بنى هاشم لذلك كانوا فى صف زبيدة لاتحاد النسب وفى سنة ١٧٥هـ قام عيسى بن جعفر بالتوسط لدى الوزير الفضل بن يحيى لتولية الأمين العهد مع أن الأمين كان فى الخامسة آنذاك ولهذا السبب لم يوافق بعض أعضاء الأسرة الحاكمة على هذا الاقتراح»(١).

ووافق الرشيد على تعيين الأمين وليا للعهد نظراً للضغوط التى واجهته من المعسكر العربى ومن زوجته العربية الوحيدة الأثيرة لديه كما أن الأمين كان الخليفة العباسى الوحيد الذى ينتسب إلى بنى هاشم من ناحية أبويه فى مقابل المأمون الذى جعل له ولاية العهد بعد الأمين وكان المأمون من أم فارسية ولهذه الأسباب رجحت كفة الأمين، وعلى الرغم مما أقدم عليه الرشيد إلا أنه كان فى قرارة نفسه يفضل المأمون لأن فيه «حزم المنصور ونسك المهدى وعزة نفس الهادى، ولو شاء أنسبه لنفسى لنسبته، وقد فضلت الأمين عليه فى الخلافة وأنا أعلم أنه مسرف وعبد لرغباته ويشارك النساء والإماء فى رأيه ولولا ضغط بنى هاشم وزبيدة لفضلت المأمون عليه»(٢).

إذا نحن بإزاء موقف حرج اضطر إليه الرشيد اضطرارا إلا أن أحدا لم يستطع السيطرة على أحاسيس الرشيد الذى أعلن ميله مراراً وبطرق متعددة تجاه المأمون وكان المأمون يصدق كل توقعاته. وقد نجح شبلى فى تصوير مشاعر الرشيد نحو المأمون فى مقابل مشاعر زبيدة الحاقدة عليه. «ذات يوم نظر الرشيد إلى ابنه الصغير أبى عيسى وكان لا مثيل لحسنه وجماله فقال: ليت جمالك لعبد الله فقال له أبو عيسى على أن حظه منك لى فتألمت زبيدة لذلك وقالت له أتفضل ابن الجارية على فلذة كبدى»(٣).

وقد قسم الرشيد الدولة الإسلامية إلى قسمين: للأمين بغداد وما يليها من الغرب وللمأمون الأرض شرق بغداد وبلاد فارس وبهذا وضع الرشيد بذرة الخلاف والشقاق

---

(١) شبلى: المأمون: ٢٨.

(٢) المرجع السابق: ٢٨ – ٢٩.

(٣) المرجع السابق: ٢٩.

بيديه فكانت الفرقة والحرب التى قتل فيها الأخ أخاه، والحق أن المؤرخين كانوا متحاملين على الأمين وفى صف المأمون دون أن يحللوا الموقف الشاذ للرشيد وتقسيمه الملك بين الأمين والمأمون فى سابقة جديدة من نوعها فى البيت العباسى. ويعبِّر شبلى عن قلق الرشيد وتخوُّفه من الخلاف الذى سينشأ بين الأمين والمأمون وخوفه أكثر من جانب الأمين لهذا لجأ إلى إجراء ليضمن حق المأمون «فعندما ذهب إلى مكة استدعى الأمين بمفرده إلى الكعبة وتفاهم معه فى الأمور الخاصة بولاية العهد بعده واستكتب كل منهما وثيقة منفصلة وافق كل منهما على التقسيم الذى اقترحه هارون ووقعا على الوثيقة أمام جمع غفير منهم الوزير يحيى البرمكى وجعفر بن يحيى والفضل بن الربيع وأسرة الخلافة وجميع العلماء والأعيان والفقهاء وقرأها بصوت عال ليسمع الحاضرون وشهد عليها جميع الحاضرين ثم كتبها بماء الذهب ورصعها بالياقوت والزمرد وعلقها على أستار الكعبة واستحلف الحراس المحافظة عليها»[1] ويمكن الرجوع إلى الوثيقتين فى تاريخ الطبرى وتاريخ مكة. وقد أمر الرشيد بأن تؤول أمواله ورجاله وعتاده ومعسكره للمأمون وعندما ذهب لحرب الروم عام ١٩٠هـ جعل المأمون مكانه وأعطاه خاتم خلافة الخليفة المنصور، ومات الرشيد فى ٣ جمادى الثانى ١٩٣هـ وحدث ما كان يتوقعه الرشيد فحنث الأمين بوعده ونكث القادة وعلى رأسهم الفضل بن الربيع العهد ورحل الجميع إلى بغداد. ويتسرب شبلى إلى دخائل نفس المأمون ليصور حالته وينظر المأمون إلى نفسه فيجد أن الأمين نجح فى خطته واستمال القوات إليه وأخذ أموال الرشيد والخلافة ولديه الخزانة عامرة فى بغداد وكان فى مرو آنذاك فجمع أعضاء البلاط وتشاوروا فيما بينهم «فأشاروا عليه بأن يلحقهم فى ألفى فارس فيردهم إلا أن الفضل بن سهل عارض هذا الرأى قائلا إن فعلت ما أشاروا به عليك جعلت هؤلاء هدية إلى محمد لكن عليك أن توجه إليهم رسولا فتذكرهم بالبيعة وتسالهم الوفاء فنفذ المأمون مشورة الفضل لكن رجال الأمين أهانوا الرسل وبدأ يدب دبيب اليأس فى نفس المأمون فربط الفضل بن سهل على كتفه وقال: اصبر وأنا أضمن لك الخلافة»[2].

وكان صنيع الفضل بن الربيع وما شعر به المأمون من ظلم أول الشقاق بين الأخوين وبدأت بينهما حرب الرسائل ثم حرب الوفود التى سرعان ما تطورت إلى حرب الجيوش وكان الفضل بن سهل مربى المأمون ووزيره هو الذى يقود دفة الرأى فى معسكر المأمون

---

(١) المرجع السابق: ٣٠ – ٣١.

(٢) المرجع السابق: ٣٧ – ٣٨.

فى قبالة الفضل بن الربيع وزير الأمين: «الذى كان أول من نكث بالعهد وطلب منه أن يأخذ البيعة لابنه موسى فأرسل الأوامر إلى جميع البلدان ليقرأوا اسم موسى فى الخطبة بعد المأمون ورفض المأمون هذا الإجراء»(١).

وكان هذا الرفض مقدمه للحرب وبدأ الأمين يدق طبولها فأعد جيشا تبلغ عدته أربعين ألفا جهزه بالعدة والعتاد وجعل على رأسه على بن عيسى بن ماهان بينما أعد المأمون جيشا صغيرا بقيادة طاهر بن الحسين وسار جيش الأمين إلى الرى فى منتصف جمادى الآخرة عام ١٩٥هـ والتقى الجيشان وظفر جيش طاهر على قله عدده وعتاده وقتل على بن عيسى المغرور بقوته «وأرسل طاهر للمأمون كتاب الفتح: كتابى إلى أمير المؤمنين ورأس على بين يدى وخاتمه فى إصبعى وجنده تحت أمرى وكان الأمين فى ذلك الوقت يلهو مع غلامه كوثر ويصطادان السمك وعندما قيل له إن الجيش هزم وقتُل على بن عيسى صاح فى الرسول وقال: لتصمت لقد اصطاد كوثر سمكتين ولم أصطد واحدة منذ الصباح!!»(٢).

كان هذا سلوك الأمين خليفة المسلمين الذى انصرف إلى حياة اللهو بينما سارع الفضل بن الربيع وأعد جيشاً بقيادة عبدالرحمن بن جبلة لكنه هزم كذلك، وتقدم جيش طاهر بن الحسين ونادى بالمأمون أميراً للمؤمنين وضعف جيش الأمين وحدث شقاق بين عناصره من العرب والفرس وزحف طاهر وهرثمة بن أعين نحو بغداد فحاصروها ودقوها بالمنجنيق.

«وظل طاهر محاصراً لبغداد طوال عام فخرب وأحرق الكثير من قصورها وديارها وعندما يئس الأمين من طول الحصار وما ألم ببغداد من شظف العيش وهم الراتعون فى الخيرات استشار قواده فأشاروا عليه أن يطلب الأمان من هرثمة بن أعين (وهو من أصل عربى) ففاوضه فأمنه فى حين لم يوافق طاهر بن الحسين على هذه المفاوضة وترصد سفينة الأمين التى ذهب فيها للقاء هرثمة وخرقها وضربها بالآجر حتى امتلأت بالماء وغرق الأمين وخرج على الشاطىء فتعقبه جند طاهر وقتلوه رغم توسله لهم وحمل طاهر رأسه إلى المأمون فحزن عليه وبكاه كما بكاه شعراء بغداد بأثرها»(٣).

---

(١) شبلى: المأمون: ٤١ – ٤٢ . .

(٢) المرجع السابق: ٤٤ – ٤٥ .

(٣) المرجع السابق: ٥٥ – ٦٠ .

وهكذا طويت صفحة الأمين فى ٢٥ محرم ١٩٨هـ وعمره ثمانية وعشرون عاما ورثاه المأمون وحزن على وفاته.

وفى ٢٦ محرم ١٩٨هـ تمت البيعة بالخلافة للمأمون «وبدأ الخلافة المستقلة منذ ذلك التاريخ وقد سيطر الفضل بن سهل منذ البداية على مقاليد الامور وقام المأمون بمكافاة الفضل بمنح جميع البلاد المفتوحة: كور الجبال وفارس والأهواز، والبصرة لأخيه الحسن بن سهل بينما أمر طاهر بالخروج لقتال نصر بن سيار فى الشام وإخماد ثورته»[١]. وزادت هيمنة الفضل بن سهل وأرسل أخاه الحسن بن سهل واليا على بغداد بأمر المأمون فزاد هذا من حنق الهاشميين والعرب وبدأت الخلافات تتسع وازداد الرقع على الراقع وانتشرت الفتن وكان أولها ثورة ابن طباطبا العلوى سنة ١٩٩هـ وقام المأمون بإخمادها. ويعقب شبلى على ثورة العلويين والسادات بقوله «إن العباسيين يتهمون عموما بقتل العلويين والسادات وإن الناس الذين يعترضون على ذلك لهم العذر كل العذر لكن الشخص الذى يقيس الأمور بالمقاييس السياسية سوف يسلم بهذا الاعتراض بصعوبة حيث تفاقمت قوة العلويين والسادات وبدأوا فى إثارة الفتن فكانت الأسرة العباسية لا تطمئن لجانبهم مطلقا وكل ما حدث كانت تقتضيه الضرورة»[٢] وهكذا يلتمس شبلى العذر لبطله ثم «قام المأمون بتفجير مفاجأة كبيرة بإيعاز من الفضل بن سهل وهى أنه ولى الإمام على الرضا الإمام الثامن ولاية العهد وأمر بخلع السواد شعار العباسيين وارتداء اللون الأخضر شعار العلويين وكان الإمام الرضا موجودا فى ذلك الوقت وكان جديرا بالخلافة لفضله وعلمه علاوة على زهده وورعه فأراد المأمون أن يوليه العهد وفى سبيل ذلك أرسل الفرمانات والرسائل إلى جميع البلاد يطلب حضور العباسيين إلى دار الخلافة وكان عدد الجيل التاسع منهم حوالى ٣٣ ألف شخص منتشرين فى كل مكان فاستقبلهم وأكرمهم وقرر عقد جلسة فى البلاط عام ٢٠١هـ واختار على الرضا وليا للعهد»[٣]. وقع خبر ولاية العهد لعلى الرضا على بغداد كالصاعقة ورفضوا معه خلافة المأمون وولوا مكانه عمه إبراهيم بن المهدى ٢٠١هـ وفى وسط هذا الظلام والتخبط شاءت

---

(١) المرجع السابق: ٦٤ - ٦٥.

(٢) شبلى: المأمون: ٦٩.

(٣) المرجع السابق: ٧٣ - ٧٤.

مشيئة الله أن يكون هناك بصيص من نور يقلب الأمور ويجلو الغشاوة التى على عينى المأمون بفعل وزيره الفضل بن سهل، كان هذا البصيص هو الأمير العلوى الإمام على الرضا الذى اختاره ولى عهده فقد خلا إلى المأمون وأخبره بحقائق الأمور « وأن الحرب مازالت قائمة منذ مقتل الأمين والدماء تسيل ليل نهار واختار أهل بغداد إبراهيم خليفة وكانت هذه الكلمات جديدة عليه فقال مندهشا « لا إبراهيم ليس خليفة بل نصبه الناس نائبا للخليفة » فقال على الرضا لقد أخفى عليك ذو الرياستين (الفضل) الأحداث الحقيقية للدولة وإنك تتكلم الآن بلسانه لأن إبراهيم الذى تعتبره نائبا للرياسة يتحارب الآن مع الحسن بن سهل كما أن العباسيين عموما ناقمون من وزارة الفضل ومن بيعتك لى بولاية العهد واستدعى على الرضا يحيى بن معاذ وعبدالعزيز بن عمران وسألهما فرفضا الإجابة إلا بعد أن أعطاهما المأمون الأمان مكتوبا فقالوا له الحقائق كاملة وأخبروه بحسن صنيع هرثمة وكيف غدر به الفضل »[1].

كانت هذه الكلمات مفاجأة كبيرة أدهشت المأمون فأراد أن يصحو من غفلته ويتدارك الأمر قبل فوات الأوان، وعلى الفور قرر المأمون الرحيل إلى بغداد عام ٢٠٢هـ وفى الطريق عند سرخس وقع حادث ظن الناس أنه غير مدبر وهو « دخول جماعة من الناس بقيادة غالب المسعودى الحمام على الفضل وقتلوه شر قتلة ومن الغريب أن الذين قاموا بقتله كانوا من أماكن متفرقة وهم قسطنطين الرومى وفرج الديلمى وموفق الصقلبى وأعلن المأمون عن جائزة قدرها عشرة آلاف دينار لمن يمسك بالقتلة فظفر بها عباس بن الهيثم وعندما جيء بهم وقيل لهم من الذى أشار عليكم بهذا؟ قالوا بشجاعة إنه المأمون فأمر بقتلهم وعلى الرغم من كل الدلائل التى تتهم المأمون فإنه قام بعدة إجراءات لإبعاد هذه الشبهة عنه فأرسل له القتلة وخطاب تعزية أعرب فيه عن حزنه العميق!! وقرر تعيين الحسن بن سهل وزيراً مكانه وتزوج المأمون من ابنة الحسن بن سهل وكأنه بهذه الإجراءات يكفر عن خطئه تجاه الفضل، وقد أصيب الحسن بن سهل بالجنون بعد فترة فى عام ٢٠٣هـ وعين مكانه أحمد بن أبى خالد وزيرا وبدأ المأمون يحكم بنوع من الاستقلال بعد مقتل الفضل »[2].

ولم يكد موضوع مقتل الفضل ينتهى حتى كانت هناك مفاجأة أخرى من نصيب

---

(١) شبلى : المأمون : ٧٨ – ٧٩ .

(٢) المرجع السابق : ٨٠ – ٨١ .

المأمون، فعندما وصل إلى طوس مات ولى عهده على الرضا، والقول الشائع أنه مات مسموما بعد أن أفرط فى أكل عنب ويصور لنا هذه الواقعة بقوله: «مات على الرضا فجأة عندما وصل المأمون طوس ويقولون إنه دس له السم وكانوا بالقرب من قبر الرشيد فأمر المأمون بحفر القبر ودفن على الرضا فيه لتحل بركة على الرضا على الرشيد كذلك وقد صدم المأمون بوفاته ومشى فى جنازته حاسر الرأس ويبكى ويقول: «إلى من أروح بعدك يا أبا الحسن؟» وأقام على قبره ثلاثة أيام يؤتى كل يوم برغيف وملح فيأكله ثم انصرف فى اليوم الرابع»(١) ولم يدع شبلى هذا الحدث يمر بسهولة دون أن يطرح سؤالا تاريخيا من الذى أشار بدس السم له؟ ثم يجيب بقوله: «إن الشيعة بلا استثناء متفقون فيما بينهم على أن المأمون هو الذى دس السم وللأسف لا نعثر على مؤلفات تاريخية للشيعة حتى نستطيع تفنيد آراء كل فرقة ونفصل فى هذا الأمر لأن جميع المؤلفات التاريخية الكبرى فى التاريخ الإسلامى صنفها علماء سنُه وهم على ما يبدو لم يولوا الناحية الدينية اهتمامهم الخاص وعندما نرجع إلى أحداثها التاريخية لا نجد مؤلفا واحدا يجرؤ على اتهام المأمون بهذه التهمة، بل إن ابن الأثير أبدى دهشته لهذا الخطأ ويمكننا اليوم العثور على كتاب فى التاريخ كان قريبا جدا من عصر المأمون وهو تاريخ ابن واضح العباسى وقد روى أحداث عصر المأمون بروايات شفاهية على لسان من عاصروا المأمون كما يوجد فى هذا الكتاب أثر شيعى ولو تمكنا من استقراء الأصول التاريخية لوجدنا أن المأمون عين على الرضا وليا للعهد وهذا يؤكد عدم وجود أى مؤامرة ولم يكن للرضا أى مطامع شخصية ولن يمثل حكمه أى خطر على العباسيين كما يدعى الشيعة كما أن حب المأمون لأهل البيت لا يمكن أن ينكره أحد ويمكن لنا أن ندرك ذلك من معاملة المأمون للسادات بعد وفاة على الرضا وبناء على هذا نرفض هذه التهمة»(٢).

والحقيقة أن شبلى لم يصدر فى رأيه هذا عن فراغ بل يمكننا تأكيد هذا الرأى بالرجوع إلى المصادر التاريخية التى أشارت إلى واقعة موت المأمون، وعند الرجوع إلى هذه المصادر لم نعثر إلا على رواية واحدة تشير إلى أن المأمون دس السم لولى عهده على الرضا وهى رواية ابن الأثير فى كتابه «الكامل فى التاريخ» يقول: «وقيل إن المأمون سمه فى عنب وكان علىّ يحب العنب وهذا عندى بعيد(٣)» وعلى الرغم من ذكر ابن الأثير

---

(١) المرجع السابق: ٨٢.

(٢) شبلى: المأمون: ٨٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ. دار بيروت للطباعة والنشر. بيروت. ١٩٨٢م ٦/ ٣٥١.

لهذه الرواية فإنه استبعد أن يكون المأمون قد قام بهذا العمل ورفض هذه التهمة بقوله «وهذا عندى بعيد».

وقد تناول الطبرى هذه الواقعة فى أحداث سنة ثلاث ومائتين تحت عنوان (موت على بن موسى ابن جعفر: ذكر الخبر عن سبب وفاته) يقول: «ذكر أن المأمون شخص من سرخس حتى صار إلى طوس، فلما صار بها أقام بها عند قبر أبيه أياما. ثم إن على بن موسى أكل عنبا فأكثر منه، فمات فجأة وذلك فى آخر سفر، فأمر به المأمون فدفن عند قبر الرشيد، وكتب فى شهر ربيع الأول إلى الحسن بن سهل يعلمه أن على بن موسى بن جعفر مات، ويعلمه مادخل عليه من الغم والمصيبة بموته، وكتب إلى بنى العباس والموالى وأهل بغداد يعلمهم موت على بن موسى، وأنهم إنما نقموا بيعته له من بعده، ويسألهم الدخول فى طاعته. فكتبوا إليه وإلى الحسن جواب الكتاب بأغلظ ما يكتب به إلى أحد. وكان الذى صلى على على بن موسى المأمون»(١).

وكما رأينا فى قول الطبرى لا توجد أى إشارة إلى لصق هذه التهمة بالمأمون، وتعد رواية الطبرى من أقدم الروايات وسبقت رواية ابن الأثير.

وقد ذكر السيوطى فى كتابه «تاريخ الخلفاء» هذه الواقعة متفقا مع رواية الطبرى يقول: «فلم ينشب على الرضا أن مات فى سنة ثلاث فكتب المأمون إلى أهل بغداد يعلمهم أنهم ما نقموا عليه إلا بيعته لعلى وقد مات فردوا جوابه أغلظ جواب، فسار المأمون وبلغ إبراهيم بن المهدى تسلل الناس من عهده فاختفى فى ذى الحجة»(٢).

والأرجح أن يكون أحد العباسيين قد دس السم للرضا لعدم موافقته على أن يتولى أحد العلويين ولاية العهد وقد استفاد المأمون فعلا بموت الإمام على الرضا وكتب إلى بنى العباس يدعوهم إلى طاعته بعد أن مات ولى العهد الذى يعارضونه. وواصل المأمون سيره نحو بغداد: «وعزل إبرهيم بن المهدى فى ذى القعدة سنة ٢٠٣هـ وخرج متخفيا إلى مكان ما بعد أن حكم نحو عامين وقد سافر المأمون من مرو فى رجب سنة ٢٠٢هـ ووصل بغداد فى صفر سنة ٢٠٤هـ وفى أثناء السفر كان يتفقد المدن التى فى طريقه ويقوم بالتنظيمات المناسبة وعندما وصل النهروان استقبله جميع أعيان وقادة الجيش استقبالاً حافلاً وجاء طاهر بن الحسين لاستقباله ودخل بغداد فى ركابه ودخل المأمون وقادته

(١) الطبرى: تاريخ الطبرى: دار المعارف. القاهرة. ١٩٧٧. ٨/٥٦٨.

(٢) السيوطى: تاريخ الخلفاء: دار القلم. بيروت. ١٩٨٦ ص: ٣٥٠.

بالرايات الخضراء واستدعى طاهرا ليصله فاشار عليه «طاهر» أن يرجع إلى الشعار الأسود شعار العباسيين فوافق»(١).

ثم تفرغ المأمون بعد ذلك للقضاء على الفتن التى ظهرت آنذاك فاستطاع القضاء على فتنة نصر بن شيث فى حلب سنة ٢٠٩ كما قضى على ثورة عبيد الله بن السرى فى مصر. وفى عهد المأمون ظهرت دعوة فارسية قام بها بابك الخرمى ادعى الألوهية وأباح المحرمات وسائر اللذات والنساء للجميع «وزعم أن روح جاويدان المجوسى قد حلت فى جسده وأصبح قوة كبيرة سنة ٢٠١هـ وهدد الدولة الإسلامية فارسل له عيسى حاكم أذربيجان وأرمينيا للقائه فهزمه بابك عام ٢٠٦هـ فتوجه أحمد الإسكافى سنة ٢٠٩هـ فتم أسره من قبل جيش بابك واستمرت هذه الدعوة نحو عشرين سنة وتم القضاء عليها عام ٢٢٠هـ على يد المعتصم بالله»(٢).

واتجه المأمون إلى الفتوحات الخارجية بعد أن وطد دعائم ملكه فى بغداد وقضى على الفتن والثورات الداخلية، وحاول أن يضاعف من رقعة الدولة الإسلامية التى ورثها عن الأمويين والعباسيين من قبل ويحاكى أسلافه فى هذا الميدان الرشيد والمهدى والمنصور وما تم من فتوحات فى آسيا وأوربا على أيديهم فاستولى على كابل وغزنة وقندهار وقضى على عبادة الأوثان بها وبنى مئات المساجد بها وفتح الفضل بن هامان السندان فى الهند وفتح الرى ومن فتوحاته المشهورة فى أوربا جزيرة كريت وجزيرة صقلية التى فتحها عام ٢١٢هـ.

وقد حمل المأمون على بلاد الروم فى جمادى الأولى سنة ٢١٥هـ «وعندما وصل المأمون إلى حدود الروم طلب ملكها الصلح فصلى المأمون ركعتين لله فاستخاره ورفض الصلح وقام بفتح حصون كثيرة قريبة من حدود دولته كحصن قرة وما جدة وندس وسنان وقد ساعده قائداه عجيف وجعفر ثم عاد إلى دمشق لكنه فى عام ٢١٦هـ وصلته الأنباء بإغارة ملك الروم على طرطوس ومصيصة وقتل نحو ألفى مسلم فاستشاط غضبا وهجم على الروم بنفسه وحاصر كل قلاعها ووجه ابنه عباس وأخاه المعتصم الذى فتح نحو ثلاثين قلعة بينما فتح المأمون أنطيفوا وأحرب وحصين وهزموا الروم هزيمة شنعاء

---

(١) شبلى : المأمون : ٨٧ .

(٢) المرجع السابق : ١٠٧ – ١٠٨ .

وغنموا مغانم كثيرة وأمر المأمون ببناء مدينة طوانة قرب حدود الروم وأسكنها عرباً»[١] وقد اعتمد شبلى بصفة خاصة على كتاب «عيون الحدائق» للقرمانى فى سرده لفتوحات المأمون لأنه أكثر تفصيلاً من الكتب التاريخية الأخرى مثل: الكامل لابن الأثير وغيرها.

وفى «١٣ جمادى الآخرة شعر بارتفاع درجة حرارته ومات بعد عدة أيام بعد أن جمع الأمراء والقادة وأوصى بولاية العهد لأخيه المعتصم تاركاً ابنه على الرغم من أن الرشيد نفسه قد حرم المعتصم من هذا الشرف بعد أن أوصاه المأمون وصية مؤثرة وقد ثبت هذا الاختيار بعد نظر المأمون وكان للمعتصم بالله شأن عظيم وأعمال خالدة ودفن المأمون فى طرطوس»[٢] وانهى شبلى الجزء الأول بوصية المأمون المؤثرة ثم ذكر حليته وأولاده الذكور وعددهم سبعة عشر.

* * * *

وبدأ شبلى الجزء الثانى من سيرة المأمون «بتمهيد وضح فيه قصور الكتب التاريخية التى تناولت حياة المأمون لأنها جميعا «تصور جانبا واحدا من جوانب العصر المأمونى لا يبدو فيه سوى عدة أحداث عادية لا تتجاوز الحروب الداخلية فلا تصور فيها ملامح الحالة الاجتماعية فى عهد المأمون ولا القوانين المدنية والتنظيمات السياسية ولهذا فمن الضرورى أن نترك اقتفاء أثر مؤرخينا ونجعل من أنفسنا أدلاء لنعرض على القراء صورة لعصر المأمون الذى كان يتميز عن جميع الخلفاء بأنه كان نجما فى كل فن فى الأدب والحديث والفقه وأيام العرب والشعر والأنساب والفلسفة والرياضة بينما ترك أعمالا خالدة ملموسة فى فتوحاته، فمن يرى شجاعته وثبات جأشه فى المعارك لا يمكن أن يتصور أن يديه لم يتركا السيف قط، وأخلاقه الشخصية سامية ويتسم بالتواضع والحلم والعفو والكرم والتسامح وعلو الهمة والشجاعة وهو من أشهر المشاهير»[٣].

لقد كان شبلى المؤرخ -وكاتب السيرة- مولعا بذكر الحواضر الثقافية العربية التى حملت مشاعل النور والفكر إلى الحضارة الغربية التى كانت تتخبط فى ظلمات الجهل آنذاك لذا نجده يبدأ بذكر سيرة بغداد المدنية التى ظلت قرونا مركزاً للثقافة والجلال الإسلامى عموما ولم تقتصر على العباسيين فقط، ومع أن المأمون كان يدُعى ملك

---

(١) شبلى: المأمون: ١١٨ - ١٢١.

(٢) المرجع السابق: ١٢٢ - ١٢٥.

(٣) المرجع السابق: ٢٧ - ١٢٨.

خراسان فى بدايات عهده ولهذا وقع بعض المؤرخين الأوربيين فى أخطاء فادحة بسبب هذا التصور إلا أنه بمرور الزمن صارت بغداد حاضرة الخلافة ولهذا يجب أن نبدأ بذكر تاريخ هذه المدينة الإسلامية: «ومؤسس بغداد هو أبو جعفر المنصور الجد الأعلى للمأمون، وبالرغم من أن المنصور كان الخليفة العباسى الثانى وجلس على العرش عام ١٣٧هـ إلا أنه كان من الضرورى تأسيس عاصمة مستقلة لاتساع رقعة الدولة وقوتها وكان المنصور يقيم بصفة مؤقتة فى الكوفة فاستشار أهل الرأى فاختاروا له[١] هذا المكان الذى ينسب لأنو شيروان» وجاء اسم بغداد من «باغ داد» أى حديقة العدل.

وقد استعرض شبلى سيرة هذه المدينة الإسلامية فذكر مساجدها وحماماتها وحدائقها وأنهارها وقصورها وعلماءها وفقهاءها وقبور مشاهيرها ثم تحدث عن اتساع رقعة الدول الإسلامية فى عهد المأمون وتقسيماتها الإدارية والمراكز الكبرى وأنواع الدخل أى الخراج والعُشر والزكاة والجزية وتعداد الجيوش وأسماء الدول التى تدفع الخراج. ويؤكد شلبى على اهتمام المأمون بتعمير البلاد الإسلامية ونشر الأمن والأمان بين ربوعها وإشرافه بنفسه على التنظيمات الإدارية وإقامة العدل لضمان حقوق الذميين وقد اهتم المأمون بتعمير المدن وتخطيطها وكان يخصص لكل حرفة أو صناعة حيا قائما بذاته ويشق الأنهار ويحتفر الآبار فى كل قرية ومدينة «وكان المأمون يتفقد كل إقليم من الأقاليم الكبيرة فى الدولة ويقيم فى كل موضع منها يومين أو أربعة أيام ليقيم الترتيبات المناسبة وعندما سار من مرو إلى بغداد عام ٢٠٢هـ مر بـ سرخس وطوس وهمدان وجرجان ونهروان والرى وغيرها فظل بها أسابيع ليطلع على حالة البلاد عن كثب وقد ذكر المقريزى فى كتابه «الخطط والآثار» أن المأمون عندما بدأ يتفقد أقاليم مصر كان يقيم بكل قرية يوما وليلة على الأقل، وكان يجرى الأرزاق على جميع الأيتام والأرامل والمحتاجين والفقراء والمقعدين والعجائز فى كل مكان فى الدولة من الخزانة الملكية ويعين العسس السريين فى كل إدارة»[٢].

وقد انبرى شبلى مدافعا عن المأمون عندما اتهمه المؤرخون والمستشرقون الأوربيون بالتعصب الدينى وحاول «بامر» أن يلصق هذه التهمة بالحكام المسلمين بصفة عامة فى كتابه «تاريخ هارون الرشيد» فقام شبلى بنفى فكرة التعصب هذه ببحث طويل تجاوز

---

(١) شبلى: المأمون: ١٢٩.

(٢) شبلى: المأمون: ١٤٨ - ١٤٩.

عدة صفحات فى الهامش وسبقة بهذه القصة التى توضح مدى تسامح المأمون مع أهل الذمة يقول: «كان عبدالمسيح ابن اسحق الكندى أحد العلماء المسيحيين الذين نالوا المناصب العليا فى عهد المأمون، كتب له أحد أصدقاء المأمون ذات يوم رسالة رقيقة يقول فيها: «لو اعتنقت الإسلام لكان شيئا عظيما وأنى أسف لأنك لم تمل حتى الآن إلى الإسلام ذلك الدين الصادق» فرد عبدالمسيح هذا بخطاب يضطرب قلب المرء من كلماته التى نسبها للرسول والقرآن وقد طبُع هذا الخطاب على هيئة رسالة فى لندن بمطبعة جلبرت وروبجتن واطلعت عليه فارتعدت فرائسى من كل حرف فيه ولو أن عبدالمسيح على قيد الحياة الآن مانجا من قانون الجزاء الهندى!! إلا أن المأمون وضع الخطاب أمامه وقرأه ثم كتب هذه الجملة: «إن الدين الذى يصلح للدنيا هو دين زرادشت، والذى يصلح للآخرة هو الدين المسيحى أما الإسلام فهو الدين الذى يصلح للدنيا والآخرة»(١).

ولقد وصلت الحياة العقلية فى عهد المأمون فازدهرت الفلسفة والعلوم ونشطت حركة الترجمة وقد كان «بيت الحكمة التى أنشأة هارون الرشيد موجودا ويعمل فيه مترجمون هنود ويهود ومسيحيون ومجوس وكانوا يقومون بتاليف وترجمة مختلف العلوم والفنون إلا أنه ما تم إنجازه من ثروة علمية لم تشبع نهم المأمون للمعرفة»(٢). لذلك أقام المأمون «دار الترجمة» صرف عليها ببذخ وتم نقل آلاف الكتب والمعارف من كتب الفرس والهنود واليونان وقد ورد فى فهرس ابن النديم قائمة طويلة بأسماء الكتب التى ترجمت فى عهد المأمون وهى فى شتى علوم المعرفة مثل: الفلسفة وعلم النفس والمنطق والرياضيات والكيمياء والطبيعة والطب والفلك والهندسة ونقلت الكتب الفارسية والهندية والسريانية والنبطية واللاتينية والقبطية. وكان «الحجاج بن يوسف الكوفى وقسطا بن لوقا البعلبكى وأبو حسان وسلمان وحنين بن اسحق وسهل بن هارون وجعفر بن يحيى بن عدى ومحمد بن موسى الخوارزمى وحسن بن شاكر وأحمد بن شاكر وعلى بن العباس بن أحمد الجوهرى، ويعقوب الكندى ويوحنا بن ماسيويه، وابن البطريق ومحمد بن شاكر من أشهر المترجمين فى بلاط المأمون وكان يجرى عليهم الرواتب السخية»(٣).

---

(١) المرجع السابق: ١٥٨ – ١٥٩.

(٢) شبلى: المأمون: ١٦٤ – ١٦٥.

(٣) المرجع السابق: ١٦٨.

وكان المأمون يحترم العلماء ويقربهم فى مجالسه العلمية ويميل إلى المناظرات ويتميز بالفصاحة والبلاغة فى خطبة وخطاباته ويمكن الرجوع إلى هذه الخطب بكاملها فى كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، وكان المأمون شاعرا مجيدا وله أشعار غاية فى الجمال والرقة فى الخيال والمضمون. وقد عقد شبلى بابا تحدث فيه عن أخلاق المأمون وعاداته وعن الأبهة والملكية ومجالس الطرب والشراب ويبدوءه بذكر تواضع المأمون وحلمه وعلمه وشجاعته وتدبيره وهمته، وقد تميز العهد المأمونى بالفخامة والأبهة والثراء الذى كان مضربا للأمثال ويذكر شبلى مقارنة لأحد كتاب الأوربيين بين عهد الراشدين وعهد المأمون الذى طرأ عليه تغيرات جذرية فى السلوك والأخلاق والملبس والمآكل كما أن احتفاله بزواج بوران كان يحاكى ليالى ألف ليلة.

ونتطرق هنا إلى قضية حساسة طالما دار حولها نقد الحكام المسلمين وهى انصراف بعضهم إلى حياة الترف واللهو وشرب الخمر مع أن الإسلام يدعو صراحة إلى نبذ هذه الأشياء ورغم ذلك فإننا «سوف نتعجب كيف كان المأمون الذى طالما طالع الفقه وكتب الحديث وجلس مع العلماء لسماع الأبحاث العلمية ينجرف إلى حياة اللهو والطرب والشرب والغناء حيث تتداول كئوس الراح على أنغام الموسيقى وتصدح الجوارى بالغناء وقد ظل المأمون لمدة عشرين شهرا فى بداية الخلافة يتجنب الغناء ثم بدأ بعد ذلك يستمع إلى الغناء أحيانا وعلى استحياء واستمرت هذه الحالة حوالى أربع سنوات وبعد ذلك لم يكن يستطيع قضاء يوم بدون غناء، لكى أى عجب فى هذا فلو نظرنا إلى هذا الموضوع بعين العدل لوجدنا أن جمال الطبع وحماس الشباب يثوران دائما على دولة الزهد ولم يكن هذا الأمر مقصورا على المأمون بل إن المجتمعات الإسلامية عموما كانت غارقة فى هذا اللون وقد كان كل شىء ميسرا للمسلمين فى هذا العهد من مال وأمن وبدلاً من الخمر كانوا يشربون العرق (عصير التمر) وكان أئمة الدين يجوزون شربه (مثل أبى حنيفة)»[1].

ففى العبارة السابقة نجد أن شبلى يدافع عن بطل السيرة المأمون ويدفع عنه حياة اللهو والغناء فخانته عاطفته فذكر عذراً أقبح من ذنب فهو يبرر ما كان يفعله ويقوم به المأمون من أنه «طيش شباب» وأن الشباب عموما يقومون بهذه الأعمال من لهو وغناء ويبرر خطأ المأمون بخطأ أكبر وهو «أن المجتمعات الإسلامية فى ذلك الوقت كانت غارقة فى

---

(١) شبلى : المأمون : ٢٠٥ – ٢٠٦ .

هذا اللون من الحياة، مع أن هذا اللون كان مقصورا على حياة الملوك وبلاط الأمراء دون بقية الشعب إلا من وجود حالات فردية أخرى لا يقاس عليها المجتمع الذى أنتج فى ذلك الوقت أفضل الكتب فى علوم العربية والقرآن والحديث. ويقول شبلى إن ابن خلدون قد أنكر بشدة شرب المأمون للخمر وذلك فى مقدمته بينما لم يقدم سندا تاريخيا ويسلم ابن خلدون بشرب المأمون للنبيذ(١).

ومن المؤكد أن المأمون الشاعر رقيق الإحساس كان طبعة يميل إلى الغناء وقد اشتهر العصر المأمونى بأعظم المغنيين والموسيقيين وكان بلاطه يجمع: بذل وعريب وإبراهيم بن المهدى واسحق الموصلى ومخارق وعلوية(٢).

ومذهب المأمون من القضايا الحساسة التى وقع فيها المؤرخون وكتّاب سيرة المأمون فى أخطاء فادحة نظراً لأنهم لم يفهموا طبيعة العصر وقد اتفق معظم المؤرخين على أن المأمون كان يميل إلى مذهب الاعتزال حتى صار من أشد المدافعين عنه وأنه استخدام كل سلطاته لنشر هذا المذهب الذى دفعه إليه تمامة بن الأشرس وكان المأمون يقول بخلق القرآن ويستند هذا القول إلى رأى المعتزلة فى التوحيد حيث يقولون إن ذات الله وصفاته وحدة لا تتجزأ وبناء على هذا فإن كلام الله مخلوق. وقد نجح شبلى فى تناول مذهب المأمون بتسلسل منطقى ذكر فيه كل ما قيل عن مذهبه وقد حلل كل الآراء فى هذا الصدد، فالمؤرخ السنى يعترف علانية بمحاسن المأمون وفضائله ثم يكتب متحسرا لكنه كان شيعيا للأسف، بينما كان الشيعة يرفضون تشيعه ويقولون إن تشيعه كان خداعا وعن طريقه استطاع أن يسيطر على الإمام على الرضا ثم يدس له السم ولم يكن للمعتزلة تاريخ مكتوب وإلا لوجدناهم يمنحونه لقبا آخر والحقيقة أنه فى زمن المأمون لم يكن هناك حدود فاصلة بين هذه الفرق كما هو الحال الآن فقد كان السنة والشيعة والمعتزلة يصُلون خلف بعضهم البعض وكان كبار أئمة السنة (البخارى) يروى الأحاديث عن الشيعة ولهذا كانت المذاهب مختلطة وكان مذهب المأمون خليطا من هذه العقائد فهو القائل بمسألة خلق القرآن وكان ينادى بين العامة من قال خيراً فى معاوية فهو خارج عن طاعتى، وكان يعتبر الإمام على أفضل من جميع الصحابة وفى نفس الوقت لا يذكر الخلفاء الآخرين بسوء وهناك مصادر عديدة كونت فكره الدينى ومذهبه العقائدى وكان هذا نتيجة البيئات الاجتماعية المختلفة وتعليمه بمختلف

---

(١) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون: ١/٣٠٧ - ٣٠٨.

(٢) شبلى: المأمون: ٢٠٦ - ٢١١.

اللغات، فقد تولت أسرة البرامكة تعليمه الأولى فتعلم منها الأفكار الشيعية وكذلك فتح عينيه على تعاليم الوزير الأول الفضل بن سهل وأخيرا تاثر بالمعتزلة لقد كانت طبيعة المأمون ترحب بجميع العقائد وتتنازعه الأهواء الدينية، فقد أخذه حماسه للشيعة ذات مرة وأعلن أن زواج المتعة حلال فغضب لذلك أهل السنة وذهب إليه القاضى يحيى بن أكثم وقال له إن زواج المتعة زنا وحلل له ذلك بأدلة من القرآن والسنة فلم يجد المأمون أى حرج وأمر بنسخ حكمه الأول، أما مسألة خلق القرآن فقد تشدد فيها المأمون وغالى فكان يعتبر رفض هذه المسألة بمثابة إنكار للتوحيد»(١).

إن المتمعن لتصوير شبلى لحالة التخبط والتشعب فى المذاهب أيام المأمون يستطيع أن يخرج بتصور كامل عن مذهب المأمون الذى هو خليط لكل هذه المذاهب: السنى والشيعى والمعتزلى وإن تغلب المذهب الأخير عليه لميله إلى الجانب العقلى والفلسفى.

ويعقد شبلى بابا يتحدث فيه عن رجال البلاط والوظائف الهامة فى الدولة فيتناول أحوال وزراء المأمون: الفضل بن سهل، الحسن بن سهل وأحمد بن أبى خالد ويعدد صفات كل منهم ويتحدث بالتفصيل عن وظائف القضاء والاحتساب وكاتب الديوان والمسئولين عن الخراج وقادة الحرب وعمال المأمون(٢).

ويختتم شبلى سيرة «المأمون» بفصل خاص عن العلماء فى عصر المأمون ومع أن شبلى قد ذكرهم جميعا فى خلال سيرة المأمون حيث جاءوا ضمنيا فى أكثر من موقع إلا أن حبه وتقديره للعلماء جعله يخصص لهم هذا الفصل فيذكر من الفقهاء والمحدثين يحيى بن معين والإمام البخارى ومحمد بن سعد كاتب الواقدى وسفيان بن عيينة وعبدالرحمن بن المهدى ويحيى القطأب والإمام الشافعى وأحمد بن حنبل وأبا هذيل وثمامة بن الأشرس ومن علماء العربية الأصمعى واليزيدى وأبو عمرو والأخفش النحوى وابن الأعرابى إمام العربية(٣).

وشبلى بذكره هذا الكم الهائل من العلماء إنما يؤكد على نقطة هامة وهى ازدهار الثقافة والعلوم فى عصر المأمون وإنه كان يشجعهم ويوفر لهم المناخ الصالح للتاليف والكتابة بما كان يجرية عليهم من رواتب وأرزاق.

---

(١) شبلى: المأمون: ٢١٢ – ٢١٥.

(٢) المرجع السابق: ٢٢٣ – ٢٣٥.

(٣) المرجع السابق: ٣٨ – ٢٤٤.

السيـــرة الدينيـــة

* سيرة النعمان :-

كان المذهب الحنفى قد انتشر فى الهند على حساب المذاهب الأخرى خاصة بعد ظهور الحركة الوهابية فى الجزيرة العربية وظهور أهل الحديث فى الهند على يد نذير حسين.

وكان للإمام أبى حنيفة(١) النعمان منزلة خاصة فى قلب شبلى وعقله حيث استلبت سيرته لبه وأسره فقهه وعلمه ومذهبه فتعصب له وأيده بشده واعتنق مذهبه «الحنفى» وكان من دعاته الذين يشار إليهم بالبنان وكانت له صولات وجولات فكرية كتب فيها الرسائل وخطب الخطب تأييدا له ودفاعا عنه، وأول رسالة كتبها شبلى هى «إسكات المعتدى» تأييدا لموقف الأحناف والدفاع عنهم وقد غلب عليه الإعجاب بشخصه حتى أنه أضاف إلى اسمه لقب «النعمانى» نسبة إلى الإمام أبى حنيفة النعمان وتبركا به فأصبح جزءا من اسمه واشتهر به فيما بعد. وكان المذهب الحنفى منتشرا فى الهند ويدين به معظم مسلمى الهند.

استعرض شبلى فى مقدمه «سيرة النعمان» ظروف اختياره لشخصية النعمان بن ثابت مؤسس المذهب الحنفى فقال: «منذ فترة طويلة وتخالجنى فكرة كتابة سيرة مشاهير العلماء وعرض أعمالهم لأن السيف والقلم ظلا متلازمين فى تاريخ الإسلام وأخيرا استقر رأيى على الاهتمام بالفقه والحديث والأدب والمنطق والفلسفة والرياضة وقد فضلت الفقه لأسباب عدة ووقع اختيارى على أبى حنفة مؤسس الفقه الذى عمت مسائله الفقهية وفتاويه واجتهاداته جميع العالم الإسلامى ويعد فقهه قانونا لكثير من الدول والممالك الإسلامية الكبرى طيلة اثنى عشر قرنا وحتى اليوم وكتبت سيرته بالعربية والفارسية والتركية واللغات الأوروبية، ولهذا كان من الظلم ألا نكتب سيرته بالأردية ويمكن تقدير مكانة الإمام أبى حنيفة فى الإسلام من كثرة السير التى كتبت عنه

---

(١) من الكتب التى تناولت سيرة أبى حنيفة النعمان «مناقب أبى حنيفة» للعلامة الذهبى و«سيرة أبى حنيفة لجلال الدين السيوطى»، و«أبو حنيفة» للشيخ محمد أبو زهرة، و«أبو حنيفة بطل الحرية» لـ«عبد الحليم الجندى، وقد ذكر صاحب كشف الظنون قائمة طويلة بالكتب التى ألفت عنه.

والتى لم يكتب نظيرها عن شخص آخر وقد تطور علم الرجال عند المسلمين والأعيان كتب منفصلة لدرجة يصعب معها حصرها بينما لم يتطور فن السيرة تطوراً يذكر ومن حسن الحظ ان شخصية أبى حنيفة ووقائع حياته قد نالتا الاهتمام بالعناية من كتاب السير فدونوا سيرته فى العديد من الكتب ولم يدانه شخص آخر فى هذا المنحى سوى الإمام الشافعى»[١].

وسيرا على منهجه فى فن السيرة حدد شبلى فى بداية كتابه الكتب التى تناولت سيرة النعمان وقدم فهرسا طويلا لأهم هذه الكتب وأشار إلى أنه أخذ غالبية هذا الفهرس من كتاب «كشف الظنون» لحاجى خليفة وهذه الكتب هى «عقود المرجان، وقلائد عقود الدرر والعقيان، والروضة العالية لأحمد بن محمد الطحاوى المتوفى سنة ٣٢١هـ ومناقب النعمان للإمام محمد بن أحمد بن شعيب المتوفى سنة ٣٥٧ ومناقب النعمان للشيخ أبى عبد الله الضميرى، وشقائق النعمان فى مناقب النعمان لجار الله الزمخشرى ومناقب النعمان لأبى العباس أحمد بن الصلت المتوفى سنة ٣٠٨هـ... الخ»[٢].

ولم تكن معظم هذه الكتب موجودة فى الهند فاطلع عليها شبلى فى مكتبات مصر والشام وتركيا، يقول «عندى» عقود الجمان والخيرات الحسان، و«قلائد العقيان» وكتاب الخيرات الحسان لابن حجر المكى أكثر هذه الكتب شهرة وهو كتاب فى مجمله تلخيص لـ (عقود الجمان) للقاضى الضميرى وهو كتاب جامع ومفصل والمصدر الرئيسى الذى اعتمدت عليه فى كتابى (سيرة النعمان) إلى جانب أننى اطلعت كذلك على ترجمة أبى حنيفة فى الكتب الثقات فى التاريخ والرجال مثل: التاريخ الصغير للبخارى ومعارف ابن قتيبة ومختصر التاريخ للخطيب البغدادى وأنساب السمعانى وتهذيب الأسماء واللغات للنووى وتذكرة الحفاظ للذهبى ... الخ»[٣].

وينتقد شبلى فن كتابة السيرة فى الماضى فيقول: «لقد كان منهج كتابة السيرة فى الماضى يعتمد على ذكر حياة الفرد (البطل) إلى جانب ذكر مؤلفاته وبحث أهم أفكاره وقد كتبت هذه السيّر بطريقة المناظرة، فعلى سبيل المثال كتب ابن أبى شيبة كتابا للرد على الانتقادات التى وجهت إلى فقه أبى حنيفة وكتب قاسم بن قطلوبغا المتوفى سنة

---

(١) شبلى: سيرة النعمان. طبعة كمبنى – كراچى (ب – ت) ص: ١٢ – ١٣.

(٢) شبلى: سيرة النعمان: ١٤ – ٢٠.

(٣) شبلى: سيرة النعمان: ٢١ – ٢٢.

٨٧٩هـ ردا على هذا الكتاب كما كتب كل من الشيخ أكمل الدين محمد بن البابرقى المتوفى سنة ٨٧٦ هـ والشيخ أبى عبد الله يحيى الجرجانى المتوفى سنة ٣٩٧هـ كتابين فى تفصيل مذهب أبى حنيفة، وألف المؤرخ سبط ابن الجوزى كتابا ضخما فى مجلدين باسم «الانتصار لإمام أئمة الأنصار» ليؤكد فيه مسائل فقه أبى حنيفة، لهذا فإننى فى الجزء الأول من كتابى استنبطت حياة الإمام أبى حنيفة من مؤلفاته أما فى الجزء الثانى فلا يجدى هذا النهج فى التعرف على اجتهاده وقواعد استنباط فقهه وعلى الرغم من هذا فإننى قد استفدت من هذا النوع من المؤلفات كثيرا»(١).

ويرى شبلى أن هناك أمراً جديرا بالاهتمام فى سيرة أبى حنيفة وهى أن وقائع حياة أبى حنيفة قد تم تناولها بأسلوب تاريخى كما تم استخدام طريقة الاجتهاد فى الحكم على فقهه ولهذا جمع أسلوب الكتاب بين منهج رواية الحديث والمنهج التاريخى. واستهل شبلى سيرة النعمان بالحديث عن اسمه ونسبه وولادته فهو «النعمان اسما وأبو حنيفة كنية والإمام الأعظم لقبا وشجرة نسبة هى: النعمان بن ثابت من زطى بن ماه، وكما يبدو من تركيب الأسماء فهو فى الأصل أعجمى وهناك خلاف فى نسبه وكيف جاء إلى بلاد العرب»(٢) وقد ناقش شبلى قضية نسبه وما أشيع عن استرقاقه لبنى تيم بن ثعلبة ومعنى كلمة زطى فيقول:

«نقل الخطيب فى تاريخ بغداد رواية شفاهية على لسان إسماعيل بن حماد حفيد أبى حنيفة قوله: «أنا إسماعيل بن حماد بن النعمان بن ثابت بن نعمان بن مرزبان ونحن من نسل فارسى ولم نسترق قط وقد ولد جدنا أبو حنيفة سنة ٨٠هـ والتقى أبوه ثابت بالإمام على كرم الله وجهه – وهو صغير وأن عليا قد دعا له بالخير». وذكر إسماعيل أن جده الأعلى هو «مرزبان» ومع أن المشهور عنه أن اسمه «زوطى» ومشهور بـ «ماه» وفى الغالب أنه غير اسمه إلى نعمان بعد أن أسلم وقد ذكر إسماعيل أنه من أسرة فارسية عريقة وأن أهل فارس يطلقون لقب «مرزبان» على الرئيس من الأحرار. وقد ذكر بعض المؤرخين أن زطى جد أبى حنيفة من كابل وأسرته قبيلة بنى تيم الله وأطلق سراحه وسمى بمولى بنى تيم، وقد حاول المعارضون لأبى حنيفة تلميع هذه الرواية للحط من قدره مع أن إثبات هذا النوع من العبودية لا يُعد دليلا على ضعف نسبه فالثابت تاريخيا

---

(١) شبلى: سيرة النعمان: ٢٢ – ٢٣.

(٢) المرجع السابق: ٢٥.

أن عائلة كسرى قد وصمت بهذا العيب وأن علماءنا يسلمون بأن السيدة هاجر كانت جارية – ولو لم يثبت هذا فى التوراة – وقد أطلق هذا النوع من العبودية على الإمام الحسن البصرى وابن سيرين وطاوس وعطاء بن يسار ونافع وعكرمة ومكحول ولذا فإنه ليس عارا أن يكون زطى مولى، وهناك خلاف آخر حول نسب الإمام أبى حنيفة فقد عده أبو مطيع من نسل العرب وكان بينه وبينهم نوع من الصداقة والولاء وجاء منه مولى ويقال للعبيد موال كذلك ومن هنا نشأ هذا الاعتقاد من أنه من الموالى أى العبيد وهذا خطأ دحضه إسماعيل حفيده بقوله « والله ما وقع لنا رق قط »(١).

وقد رفض شبلى الرواية القائلة برق زطى « كما رفض قصة أسره من كابل لأن زطى اسم فارسى وثبت تاريخيا أن أسرة أبى حنيفة كانت تعرف اللغة الفارسية بينما لم تكن اللغة الفارسية لغة كابل ومن الثابت أن أقليم فارس كان مليئا بالآثر الإسلامى وقد اعتنق كثير من الأسر العريقة الإسلام وقد اعتنق زطى الإسلام فى ذلك الوقت وبسبب هذا التحول الدينى اتجه إلى بلاد العرب وذلك أيام خلافة الإمام على وكانت الكوفة حاضرة الخلافة آنذاك فاقام فيها زطى وكان يحضر أحياناً إلى بلاط الإمام على وقد أهدى إليه بعض الفالوذج فى عيد النيروز »(٢) وهذه الرواية إن دلت فإنما تدل على أن أسرة زطى كانت تعيش فى غنى ويسار فى العيش بحيث تهدى الخليفة هذا النوع من الحلوى الذى لايقدر عليه إلا الأثرياء ووجوه القوم.

وحياة ثابت غير معلومة إلا أنه كان يعيش على التجارة ورزق بمولود وهو فى الأربعين من عمره سماه النعمان وهو الذى صار فيما بعد الإمام الأعظم أبا حنيفة وبطل سيرتنا « وكان ذلك فى عهد مالك بن مروان وفى ذلك الوقت كان هناك عدد من صحابة رسول الله على قيد الحياة فى صدر شباب أبى حنيفة مثل: أنس بن مالك الخادم الخاص للرسول وتوفى عام ٦٣هـ وسهل بن سعد وتوفى سنة ٩١هـ وأبى الطفيل عامر بن واثلة وكان يعيش حتى عام ١٠٠هـ ولم يثبت أن أبا حنيفة قد روى الحديث عن أى منهم وهذا الأمر يثير تعجب الناس واختلف عليه المؤرخون ويرى بعضهم أن الإمام أبا حنيفة لم يتلق أى نوع من التعليم حتى ذلك الوقت وأنه كان يعاون أباه فى تجارة البز وأنه عندما

---

(١) المرجع السابق: ٢٥ – ٢٧. وقد تعرض محمد أبو زهرة لهذه الرواية وأكد عليها فى كتابه « أبو حنيفة » ط٢. دار الفكر العربى. القاهرة. ١٩٤٧م .ص: ١ – ٢.

وكذلك عبد الحليم الجندى فى كتابه « أبو حنيفة » ص: ٩.

(٢) شبلى: سيرة النعمان: ٢٨ – ٢٩.

كبر اتجه إلى العلم عملا بنصيحة الإمام الشعبى وفى رأيى أن هناك سببا آخر منع أبا حنيفة من رواية الحديث فى ذلك الوقت وهو أن علماء الحديث قد حددوا فيما بينهم عمرا لايقل عن عشرين عاما لمن يريد الانخراط فى دروس الحديث وبما أن الأحاديث كانت تروى بالمعنى فكان من الضرورى أن يصل فيها الراوى إلى مرحلة من النضج لكى يفهم المعانى جيدا فلا يخطىء فى الرواية وهذا السبب غالبا هو الذى منع الإمام أبا حنيفة من رواية الحديث آنذاك »(١).

وقد حاول بعض المعارضين للفقه الحنفى رفض أن يكون أبو حنيفة من التابعين لصحابة رسول الله فى رواية الحديث إلا أن شبلى تصدى لهم وفند مزاعمهم يقول: « روى ابن سعد أن أبا حنيفة من طبقة التابعين لصحابة رسول الله فى رواية الحديث إلا أن هذه الميزة لاتنطبق على أئمة آخرين فى عصره مثل: الأوزاعى بالشام، والثورى بالكوفة، وحماد بالبصرة، ومالك فى المدينة، والليث فى مصر ويرى كبار المحدثين مثل الخطيب البغدادى والعلامة السمعانى صاحب كتاب الأنساب والنووى شارح صحيح مسلم والذهبى وابن حجر العسقلانى وزين الدين العراقى والسخاوى وأبى المحاسن الدمشقى وهم أئمة الرواية والحديث أن أبا حنيفة رأى أنس بن مالك »(٢).

وقدم شبلى صورة واضحة للعصر الذى عاش فيه أبو حنيفة من الناحية السياسية والاجتماعية والدينية والعلمية يقول: « عاش أبو حنيفة فى طفولته عهدا مليئا بالاضطرابات والفتن حيث كان الحجاج بن يوسف الثقفى حاكما على العراق من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان وكان ظالما سفاكا للدماء ملأ الدنيا بمظالمه وقضى على الأمن والاستقرار، وفى عام ٨٦هـ توفى عبد الملك وتولى الوليد الحكم خلفا له وإن كانت رقعة الدولة الإسلامية قد اتسعت فى عهده إلا أن هذا لم يكن مؤشرا على ازدهار الحياة الروحية والدينية ونسب إلى عمر بن عبد العزيز قوله: « والله لقد امتلأت الدنيا كلها بالمظالم فالوليد فى الشام والحجاج فى العراق وعثمان فى الحجاز وقرة فى مصر وعلى الرغم من الاضطرابات السياسية إلا أن سلسلة التعليم والتدريس لم تتوقف وكانت هناك أماكن لتدريس الفقه والحديث والرواية ومن حسن حظ الناس أن الحجاج مات عام ٩٥هـ والوليد ٩٦هـ وتولى بعده سليمان بن عبد الملك الذى أجمع المؤرخون على أنه أفضل

---

(١) شبلى: سيرة النعمان: ٢٩ - ٣٠.

(٢) المرجع السابق: ٣٢ - ٣٣.

خلفاء بن أمية عامة لكنه سرعان ما توفى عام ٩٩هـ بعد ن أوصى بالخلافة لعمر بن عبد العزيز وعم العدل أرجاء الدولة الإسلامية»(١).

وقد بدأ أبو حنيفة حياته العلمية كما ذكرت معظم الروايات - بالجدل فى مسائل الاعتقاد وعلم الكلام وكان يجادل الفرق المختلفة ويساجلها حتى استغرقت كل مجهوده الفكرى ثم اتجه إلى الفقه بعد ذلك وملك عليه حياته حتى صار إمام الرأى، يقول شبلى:

«كان أبو حنيفة يختلف بتجارته إلى البصرة وكانت فى ذلك الوقت مركزا للخارجين والفرق المختلفة مثل: الأباظية والصفرية والحشوية وغيرها وكان يتساجل معهم وينتصر ثم ترك علم الكلام واتجه للفقه ونذر حياته له»(٢).

وقد ردد كل من أبو زهرة وعبد الحليم الجندى رأى شبلى فيقول الأول «فتحت عين أبى حنيفة وأشع عقله فانكشفت له هذه الآراء، ويظهر انه فى ميعة الصبا، أو فى بواكيره، ابتدأ يجادل مع المجادلين، ونازل بعض أصحاب الأهواء بما توحى السليقة المستقيمة، ولكن كان منصرفا إلى مهنة التجارة ويختلف إلى الأسواق. ويروى عن أبى حنيفة أنه قال: «مررت يوما على الشعبى وهو جالس فدعانى، فقال لى: إلى من تختلف؟ قلت أختلف إلى السوق، فقال: لم أعن الاختلاف إلى السوق. عنيت الاختلاف إلى العلماء، فقلت له: أنا قليل الاختلاف إليهم، فقال لى لاتغفل وعليك بالنظر فى العلم ومجالسة العلماء، فإنى أرى فيك يقظة وحركة، قال: فوقع فى قلبى من قوله فتركت الاختلاف إلى السوق وأخذت فى العلم، فنفعنى الله بقوله»(٣). ويقول الثانى بعد أن ردد الرواية: «بدأ النعمان يدرس علم الكلام وهو علم التوحيد والجدال فى العقائد والأمور الدينية كافة. كالأنبياء وما يجب أن يكونوا عليه والجبر والاختيار وإن شئت فقل أنه علم التشريح الفكرى للمسائل المسلمة لإنكارها أو إقرارها بالدليل العقلى، وانخرط فى سلك التلاميذ يحفظ مسائله ويعيدها فى الغداة فيخطىء الحفاظ ويصيب هو ويلح فى الجدل حتى ليحمر وجه حماد لكن حمادا يدرك مواهب تلميذه

---

(١) الطبرى: تاريخ الطبرى: ٧: ١٢٨.
القاضى أبو يوسف: الخراج: ١٣٣.
(٢) شبلى: سيرة النعمان: ٣٩.
(٣) محمد أبو زهرة: أبو حنيفة: ٢١.

من عمق أسئلته من صلته بالله»[1].

وروى أبو حنيفة عن أناس من مختلف الفرق وناظر أئمة الشيعة وبصفة خاصة الإمام جعفر الصادق والإمام محمد الباقر «ففى المرة الثانية التى رحل فيها أبو حنيفة إلى المدينة التقى بالإمام محمد الباقر فخاطبه قائلا: أنت الذى حولت دين جدى وأحاديثه بالقياس فقال أبو حيفة معاذ الله اجلس وسوف أعرض عليك ذلك فقال له: الرجل أضعف أم المرأة فقال محمد المرأة، فقال أبو حنيفة كم سهم المرأة؟ فقال للرجل سهمان وللمرأة سهم فقال أبو حنيفة هذا قول جدك ولو حولت دين جدك لكان ينبغى فى القياس أن يكون للرجل سهم وللمرأة سهمان لأن المرأة أضعف. ثم قال: الصلاة أفضل أم الصوم؟ فقال: الصلاة أفضل قال: هذا قول جدك، ولو حولت دين جدك لكان القياس أن المرأة إذا طهرت من الحيض أمرتها أن تقضى الصلاة ولا تقضى الصوم»[2].

وعلى الرغم من أن أبا حنيفة قد حصل على درجة الاجتهاد فى حياة أستاذة حماد فإنه لم يستقل الدرس والافتاء إلا بعد وفاة أستاذه وكان أبو حنيفة فى الأربعين من عمره فاخذ يدارس تلاميذه ويفتى فى القضايا الفقهية ويقيس الأشباه بالنظائر والأمثال بأمثالها بعقل راجح ومنطق رزين حتى أسس الفقه الحنفى.

ولم يفت شبلى الإشارة إلى الآراء السياسية لأبى حنيفة وانحيازه إلى جانب العلويين فى جهادهم مع الأمويين أولا ثم العباسيين ثانيا «يقول شاه عبد العزيز» أن أبا حنيفة شارك زيد بن على فى ثورته على بنى أمية «إلا أننى لا أميل إلى هذا القول فلم يوجد ما يؤيده فى كتب الرجال والتاريخ وإنما كان هذا الخطأ لأن أبا حنيفة كان مؤيدا لثورته وسانده بالمال»[3].

ومع أن الإمام أبا حنيفة كان فقيه عصره إلا أنه رفض أن يتقلد منصبا سياسيا «ففى عهد مروان زادت الاضطرابات واهتزت دعائم المملكة فولى يزيد بن عمر بن هبيرة واليا على العراق وكان ذا نفوذ قوى، ومدبرا فجمع فقهاء العراق وكان من بينهم القاضى ابن أبى ليلى وابن شبرمة وداود بن أبى هند فوزع عليهم الوظائف وأراد أن يجعل الخاتم فى يد أبى حنيفة ويسلمه الخزانة لكنه رفض رفضا قاطعا وقال له «لو أرادنى أن أعد له

---

(١) عبد الحليم الجندى: أبو حنيفة: ١٠ - ١٢.

(٢) شبلى: سيرة النعمان: ٥٧.

(٣) المرجع السابق: ٧٠.

أبواب المسجد ما فعلت فكيف وهو يريد منى أن يكتب دم رجل يضرب عنقه وأختم أنا على ذلك الكتاب » فغضب ابن هبيرة وأمر بأن يُسجن ويُضرب كل يوم عشر جلدات وتم تنفيذ هذا الحكم الظالم لكنهم لم يثنوه عن رأيه حتى فر هاربا إلى مكة عام ١٣٠ وظل بها حتى عام ١٣٦هـ عندما استقر الأمر للعباسيين »(١).

وظل أبو حنيفة على عهده فى رفض مناصب الدولة التى تُسند إليه فى عهد الدولة العباسية كذلك « فقد رفض عرض المنصور بأن يكون قاضيا لبغداد وقال: لا أصلح لذلك فقال له المنصور كذبت أنت تصلح فقال قد حكمت على نفسك كيف يحل لك أن تولى قاضيا على أمانتك وهو كذاب »(٢) وقد ضاق المنصور ذرعا بأبى حنيفة فلم تفلح معه حيلة القضاء وخاف أن يؤلب عليه الناس وهو يعرف بميله إلى العلويين فأرسله فى النهاية إلى السجن وظل على هذه الحالة وعندما تعن مشكلة للمنصور يستدعيه من السجن ويتباحث معه فيها ثم يعود أدراجه إلى السجن مرة أخرى « ولم يطمئن من جانبه فقد كانت بغداد مركزا للعلوم ويتدفق عليها طلاب العلم من جميع الممالك الإسلامية وقد وصلت شهرة أبى حنيفة الآفاق وسوف يزيد سجنه شهرته وقبوله بين الناس وقد تلقى الإمام محمد علوم الفقه عليه وهو فى السجن، ففكر فى حيلة أخرى وهى أن يدس له السم فى الخفاء وفعل ذلك وعندما أحس بأثر السم سجد لله وظل على هذه الحالة حتى مات وانتشر خبر وفاته بسرعة فى بغداد كلها وحزن عليه العراق بأسره وصلى عليه خمسون ألفا ولكثرة الناس صلوا عليه ست مرات ودفن حسب وصيته فى أرض طيبة لم يجر عليها غصب وبنيت مقبرته من الخيزران وقال شعبه بن الحجام إمام البصرة « أظلمت الكوفة » وظل قبره مرجعا وملاذا لكثير من المسلمين وقام السلطان الب أرسلان السلجوقى بتعمير المقبرة عام ٤٥٩هـ وبنى بها مدرسة فكانت أول مدرسة فى بغداد لتدريس الفقه الحنفى والعلوم الدينية وقد زارها ابن بطوطة ووصفها فى كتابه وقال: لا يوجد فى بغداد كلها أى زاوية يجد فيها المسافر الطعام والزاد إلا مقبرة أبى حنيفة »(٣).

لقد اتصف أبو حنيفة بصفات جعلته على رأس قائمة العلماء فى عصره، فقد كان حقا ثقة بعيد النظر، متطلعا للحقائق ذا بديهة حاضرة هادئا واسع الصدر لا يغضب. يقول شبلى: لقد تبارى كتاب التذاكر والسّير فى تصوير أخلاقه وصفاته حتى ضاعت

---

(١) شبلى: سيرة النعمان: ٧١ – ٧٢.

(٢) المرجع السابق: ٧٦.

(٣) شبلى: سيرة النعمان: ٧٨ – ٨١، ابن بطوطه: رحلة ابن بطوطه: ١٥٠.

الصورة الأصلية بين قدح القادحين ومدح وغلو المغالين مثل قولهم إنه ظل يصلى الصبح بوضوء العشاء أربعين عاما وأنه صام ثلاثين يوما متصلة وعندما وافته المنية كان قد ختم القرآن سبعة آلاف مرة وأنه ألقى بلحم غير طيب فى نهر الكوفة لعل السمك يأكله فرفضت الأسماك أن تأكل منه وغير ذلك من الروايات»[1] وقد رفض شبلى هذه الروايات وذكر أنه لا تستند إلى دليل ولم تثبت تاريخيا كما أن أبا حنيفة غنى عن التعريف وليس فى حاجة إلى مثل هذه القصص لترفع من سهمه بين الناس.

«لقد كان عالما فذا وقد وصفه القاضى أبو يوسف ذات مرة لهارون الرشيد فقال: «كما أعرف فقد كان زاهدا تقيا ورعا يبتعد عن المحرمات ويلزم الصمت كثيرا ويفكر فى مسائل الفقه مليا فإن كان يعرفها أجابه عليها وإن لم يكن يعلمها صمت وكان كريما سخياً يحقر جاه الدنيا ويحترز من الغيبة «فقال هارون الرشيد» هذه والله أخلاق الصالحين «وكان نظيفا حسن المظهر يلبس الثياب الغالية وغدق على أصحابه وتلاميذه بالمال الذى يمنعهم عن سؤال الناس ويجعلهم ينكبون على العلم ويكره الكسل والتواكل ولا يخاف فى الحق لومة لائم، يروى أنه ذات مرة حدث نزاع بين الخليفة المنصور وزوجته حرة خاتون لأنه لم يعدل معها فقال لها المنصور تخيرى الحكم فاختارت أبا حنيفة فحكم لها وقال للمنصور «إن خفتم ألا تعدلوا فواحدة» فصمت المنصور وأرسلت زوجته خادما لها بالهدايا والأموال إلى أبى حنيفة فرفضها وقال للخادم قل للسيدة إننى فعلت ما يفرضه علىّ منصبى»[2].

* * *

واستهل شبلى الجزء الثانى من «سيرة النعمان» بالحديث عن مؤلفات أبى حنيفة المنسوبة إليه وهى: الفقه الأكبر والعالم والمتعلم والمسند فقال والفقه الأكبر رسالة صغيرة فى العقائد وقدرت فيها عقائد النسفى وغيره وطبعت هذه الرسالة ونشرت فى كل مكان وقدم كثير من الفقهاء شرحا لها مثل: محيى الدين محمد بن بهاء الدين المتوفى سنة ٩٣٥هـ وحكيم اسحاق وشيخ أكمل الدين، وملا على القارئ و«العالم والمتعلم» رسالة مختصرة على هيئة سؤال وجواب. أما «المسند» وله نسخ عديدة وجمعها أبو المؤيد محمد ابن محمود الخوارزمى المتوفى سنة ٦٦٥هـ وقال فى مقدمته للمسند أنه «أقبل

---

(١) المرجع السابق: ٨٣.

(٢) المرجع السابق: ٨٤ – ٨٨.

على هذا العمل لأن بعض الجهلة من بلاد الشام يعتقدون أن الإمام أبا حنيفة ليس له دخل بعلم الحديث «ومن هذه المسانيد» مسند حافظ أبى محمد عبد الله ابن محمد بن يعقوب الحارثى ومسند الإمام أبى القاسم طلحة ومسند القاضى أبى يوسف ومسند الإمام محمد ومسند حماد بن الإمام أبى حنيفة... الخ»[1].

وقد حامت الشكوك حول مؤلفات أبى حنيفة «ومن الأنصاف أن نقول إنه يمكن نسب هذه المؤلفات لأبى حنيفة بصعوبة بالغة ولا يمكن أن ننكر أن الإمام أباحنيفة قد رتب مجموعة من الفقه فى حياته رجع إليها صاحب عقود الجمان وغيره لكن أغلب الظن أنها مفقودة فكتب التراجم تذكر آلاف الكتب فى ذلك العصر بينما لا يوجد كتاب منها فى المكتبات الآن فقد كتب المعاصرون لأبى حنيفة العديد من كتب الحديث والفقه مثل: سفيان الثورى والإمام الأوزاعى وحماد بن سلمة وهشيم ومعمر وجرير بن عبد الحميد وعبد الله بن المبارك لكنها لاتعدو كونها اليوم مجرد أسماء لا يوجد منها كتاب واحد وقد صرح الإمام الرازى فى مناقب الشافعى أن الإمام أبا حنيفة لم يبق له كتاب اليوم كما أن مسند الخوارزمى المنسوب للإمام أبى حنيفة هو مجرد إطلاق مجازى»[2].

لقد كانت العقائد والكلام لها مكان بارز فى حياة أبى حنيفة «حيث كان يميل فى بداية حياته إلى علم الكلام وكانت فرق الكلام قد ظهرت فى ذلك الوقت مثل الجهمية ومؤسسهاجهم بن صفوان الذى أثار مسألة القدر والمعتزلة التى أسسها واصل بن عصاء وتلميذه الحسن البصرى وكان هناك عدة فرق للخوارج كالجبرية والمرجئة والكيسانية وقد اشتهرت المسائل الكلامية فى هذا العصر وانتشرت المساجلات والمناظرات وأبدى أبو حنيفة تفوقا ونبوغا فيها ومن أهم المسائل التى تصدى لها أبو حنيفة: «حقيقة الإيمان» فهو «الإقرار والتصديق» كما جاء فى كتابه الفقه الأكبر ويقول فى الإسلام: هو التسليم والانقياد لأوامر الله تعالى ولا يوجد إسلام بلا إيمان وهما كالظهر للبطن»[3].

والإيمان فى نظر أبى حنيفة «لا يزيد ولا ينقص وأن إيمان أهل السماء وأهل الأرض واحد وإيمان الأولين والآخرين والأنبياء واحد لاننا كلنا آمنا بالله وحده وصدقناه وأن

---

(١) شبلى: سيرة النعمان: ١٣١ – ١٣٣.

(٢) المرجع السابق: ١٣٣ – ١٣٤.

(٣) شبلى: سيرة النعمان: ١٣٨ – ١٣٩.

الفرائض كثيرة مختلفة، وكذا الكفر واحد وصفات الكفر كثيرة وكلنا آمنا بما آمن به الرسل لكن لهم علينا الفضل فى الثواب فى الإيمان وجميع الطاعات»[١].

وناقش شبلى الاتهام الموجه لأبى حنيفة من أنه ضعيف المكانة فى علم الحديث وذلك بحياد وموضوعية لأن «الاعتقاد بأن أبا حنيفة مقل فى علم الحديث هو اعتقاد خاطئ ومع ذلك لا يمكن أن ننكر أنه لم يشتهر بلقب محدث بوجه عام فقد مر علينا مئات من الصحابة والسلف الذين كانوا يجمعون بين الرواية والاجتهاد، وإن كان أبو حنيفة لم يترك كتابا فى الحديث فأى عجب فى هذا والإمام مالك والشافعى لم يشتهر بهذا اللقب، كما أن مؤلفاتهما لم تحز قبول العامة كالإصحاحات الستة بل إن الإمام أحمد بن حنبل أكثر هؤلاء الأئمة فى علم الحديث تميز مسنده بوجود مجموعة كبيرة من الأحاديث الصحيحة بينما لم يشتهر إلى هذا الحد فى الاستنباط والاجتهاد، والطبرى نفسه كان محدثا ومجتهداً لكنه لا يعتبر من المجتهدين وقد اكتفى القاضى عبد البر فى كتابه «الانتهاء فى الثلاثة الفقهاء» بذكر أبى حنيفة ومالك والشافعى وقد عزا ابن حجر سبب قلة رواية أبى حنيفة للحديث بإقباله على الاشتغال بالفقه لكن مما يؤسف له أن الناس أضافوا روايات عديدة فى هذا الموضوع»[٢].

وتحدث شبلى بعد ذلك عن تاريخ الفقه ودور أبى حنيفة فى الفقه الإسلامى وقد أسهب شبلى فى هذا الباب وقسم فقه أبى حنيفة إلى قسمين وقارن بينه وبين الفقهاء الآخرين ورجح كفته فى النهاية وأبرز مكانته بين معاصريه لأن «فقه أبى حنيفة شامل ومتشعب وفيه جزء خاص يجعل أبا حنيفة متميزا عن فقهاء عصره ومجتهد به بل إننانعلنها صراحة أن أبا حنيفة أول شخص وضع القانون – بالمفهوم المعاصر – فى الإسلام حيث ظل القانون عند المسلمين فى يد الفقهاء ورجال الدين الذين يطبقون الدين تطبيقا صارما ونتيجة لهذا ظلوا بمعزل عن مجريات الأمور الدنيوية وغفلوا عن الأحداث العامة ونفروا من غير المتدينين وكل الأشياء المرتبطة بالحضارة ولهذا فإن المجتهدين الذين أعدوا القوانين للدولة والأشخاص باسم الفقه تجاوزوا الحد فى الرهبانية وأهملوا مشكلات الحضارة الأخرى فاتسمت قوانينهم بالتعنت وضيق الأفق، وعندما جاء أبوحنيفة فاق أقرانه بمعرفته الجيدة للمسائل الدنيوية إلى جانب التزامه بالشرع وكان قد

---

(١) شبلى: المرجع السابق: ١٤٧ – ١٤٩.

(٢) المرجع السابق: ١٥٤ – ١٥٦.

تمرس بحل آلاف القضايا والفصل بين المنازعات فكان مجلس إفتائه بمثابة محكمة عليا للحكم فى القضايا وقام أبو حنيفة بتدوين جزئيات الفقه واستقصاء دقائقه حتى أصبح فى ذلك الوقت قانونا شاملا يطلق عليه لفظ عام هو «الفقه» إلا أنه فى الحقيقة جامع لكثير من القوانين التى قام المقننون فى العصر الحديث بتقسيمها إلى عدة قوانين منفصلة مثل قانون المعاهدات وقانون البيع وقوانين الضرائب والقانون العسكرى وغيرها»(١).

وإن كان شبلى قد قارن بين فقه أبى حنيفة وبقية فقهاء عصره ورجح كفته ودافع عن مذهبه فإنه فى الوقت نفسه يدافع عن الفقه الإسلامى كله فى وجه المستشرقين والكتاب الأوربيين وذلك عندما انبرى فى الدفاع عنه ضد مغالطات شيلدون آموز Sheldon Amos أستاذ القانون فى جامعة لندن الذى ألف كتابا حاول أن يثبت فيه أن الفقه الإسلامى مأخوذ عن القانون الرومانى وذلك فى كتابه القانون المدنى الرومانى Civil Law of Rome(٢). وقد فند شبلى مزاعم «آموز» واستخدم منهج الدراسة على نطاق واسع فى الرد عليه يقول: «يعتقد بعض الأوربيين (ومنهم شيلدون آموز) أن الإمام أبا حنيفة قد استعان بالقانون الرومانى فى تدوين الفقه واستفاد منه كثيرا فى تقنين قضاياه الفقهية وذكر عدة قرائن تأكيدا لمزاعمه وهى:

١ – تطابق كثير من مسائل الفقه الحنفى مع القانون الرومانى.

٢ – كان القانون الرومانى مطبقا على جميع مدن الشام وقد عاش المسلمون هناك فترة طويلة وتأثروا كثيرا بحضارة الشام وحياته الاجتماعية ولهذا فإن أغلب الظن أن علماء المسلمين استفادوا استفادة عظيمة من المسائل القانونية بهذه البلاد.

٣ – يحتوى الفقه على قوانين شاملة ومتعددة إلى حد أنه يمكننا القول أنه قد استفاد من القوانين الأخرى.

ولو حاولنا دراسة الفقه الحنفى والقانون الرومان بدقة واستقصاء وعقدنا مقارنة بينهما لوجدنا أن التطابق الذى يوجد بين القانونين لا يخرج عن حد التوارد الذى يوجد عموما فى كثير من قوانين الدول المماثلة وأعترف أولا بأننى غير ملم بالقانون الرومانى ولو كنت واقفا به لقارنت بينه وبين الفقه الحنفى إلا أننى يجب أن اعترف أن كل ما

---

(١) شبلى: سيرة النعمان: ٢٤٨ – ٢٥١.

(2) Amos, Sheldon: The history and principles of the civil Law of Rome. London. 1883. Vol I.

سأكتبه لا يعدو القياس والاستنباط لكن مع ذلك يجب أن أذكر أن الباحثين أمثال ادوارد جبن وشيلدون آموز وتوماس آرنولد الذين يطرقون هذا البحث يستخدمون القياس والظن أيضا لأنه بالرغم من وجود البحث والتحقيق لا نستطيع أن نجزم بأننا قارنا بين جميع أو معظم القضايا فى الفقه الحنفى والقانون الرومانى، ولا يمكن أن ننكر أن الفقه الحنفى به كثير من المسائل التى كان معمولا بها فى العراق وبلاد العرب قبل الإسلام لكن ليس بها خصوصية الفقه الحنفى، كما أن الشرائع والقوانين الحالية التى يُعتقد أنها خاصة بالإسلام وورد ذكرها فى القرآن كان كثيراً منها معمولا به فى الجاهلية وقد ذكر العلامة أبو هلال العسكرى هذه الشرائع بالتفصيل فى كتابه «الأوائل» فيقول:

١ – أول من سن الدية النضر بن كنانة وأول من سن الدية مائة من الإبل عبد المطلب.

٢ – أول من سمى الجمعة جمعة وكانت تسمى عروبه كعب بن لؤى.

٣ – أول من بحر البحيرة وسيب السائبة وجعل الوصيلة والحام عمرو بن لحى.

٤ – أول من نسأ النسىء هو حذيفة بن عبد بن فقيم.

٥ – أول من قطع فى السرقة الوليد بن المغيرة(١).

٦ – أول من حرم الخمر فى الجاهلية الوليد بن المغيرة.

٧ – أول من رجم فى الزنا ربيعة بن حدار الأسدى.

٨ – أول من حكم أن الولد للفرش أكثم بن حنيفى.

٩ – أول من حرم القمار أقرع بن حابس(٢).

بل إن قواعد الخراج والضرائب التى قررها عمر بن الخطاب كانت قد وضعت أيام حكم أنو شيروان ولم يكن هذا مجرد توارد خواطر بل إن عمر قلد أنو شيروان كما ذكر الطبرى وابن الأثير بكلمات واضحة. على كل حال فإن هذا الأمر جدير بالتسليم بأن الإمام أبا حنيفة استعان على توضيح فقهه بالقوانين والرسوم والتقاليد والشرائع التى كانت مطبقة وسارية فى الحضارات القديمة، لكن يبقى هذا السؤال وهو ما مدى التأثير الذى تأثر به الإمام أبو حنيفة فى وضع قوانينه؟ أو بعبارة أخر هل يمكن أن نطلق عليه أنه واضع للقانون بشكل مستقل أو أنه مجرد جامع له؟ فبقدر ما وصل إليه تحقيقنا فإن

---

(١) أبى هلال العسكرى: الأوائل. تحقيق محمد السيد الوكيل. المدينة المنورة. ١٣٨٥ هـ ص: ٢٣ و٣٤ و٤٨ و٤٢ و٤٤.

(٢) المرجع السابق ص: ٣٨ و٣٩ و٥٥ و٥٧ و٦٩.

المسلمين كانت معرفتهم بالقوانين والمؤلفات القانونية للدول الأخرى ضئيلة للغاية حيث إننا نجد مئات الكتب المترجمة فى الفلسفة والطب وغيرها من العلوم فى حين لا نجد كتابا قانونيا واحدا مترجما للغة العربية ومن الثابت قطعا أنه لم يكن هناك كتاب مترجم فى القانون عندما كان الإمام أبو حنيفة يدون الفقه ولهذا فإن احتمال استفادته من المولفات القانونية للدول الأخرى مرفوض تماما ولا أساس له»[١].

لقد كانت مدرسة الفقه الحنفى – ولا تزال – عريقة ومتشعبة وقد امتدت ظلالها الوارفة إلى مناطق شاسعة من المعمورة وبصفة خاصة فى الدول الآسيوية وإيران والهند حتى الصين، وفى ختام سيرة النعمان يذكر شبلى تراجم تلاميذ أبى حنيفة الذين عاونوه فى نشر فقهه وتدوينه وجمعه ويصل عددهم أربعين شخصا عاونوه بصدق فى نشر مذهبه وتدوين فقهه وقد قسم شبلى تلاميذه إلى قسمين المحدثين والفقهاء.

أولاً: المحدثون: وهم يحيى بن سعيد القطان وعبد الله بن المبارك ويحيى بن زكريا بن أبى زائدة ووكيع بن الجراح ويزيد بن هارون وحفص بن غياث وأبو عاصم النبيل وعبد الرازق بن عمام وداود الطائى[٢].

ثانيًا: الفقهاء: وهم الذين شاركوه فى تدوين الفقه وهم: القاضى أبو يوسف، والإمام محمد بن الحسن الشيبانى والإمام زفر وقاسم بن معن، وأسد بن عمرو، وعلى بن المسهر وعافية بن يزيد وحبان ومندل[٣].

سيرة النبى

ويُعد كتاب «سيرة النبى» لشبلى النعمانى من الكتب الهامة التى كتبت بعد سيرة ابن هشام – وما يميز هذا الكتاب أنه لا يدور حول سيرةالنبى – ﷺ – فحسب – مثل باقى كتب السيرة النبوية – بل يتناول العقائد والمعاملات والعبادات والسياسة فى عرض رصين مُدعم بالبحوث العلمية والدراسات الدقيقة والتحفظ فى الروايات التى يوردها وعرضها بقوة منطقية تذب ما يكتبه أعداء الإسلام فى مناحى السيرة المختلفة.

وقد اقتفى شبلى أثر القرآن والسنة ودراسته المستوعبة للتاريخ فى تدوين «سيرة النبى» وتقع هذه السيرة فى سبعة مجلدات، المجلدان الأول والثانى من تاليف شبلى

---

(١) شبلى: سيرة النعمان: ٢٥١ – ٢٦٣.

(٢) المرجع السابق: ٣٢٣ – ٣٣٦.

(٣) المرجع السابق: ٣٣٧ – ٣٥٥.

النعمانى. والمجلدات الخمسة الباقية قام بتأليفها تلميذه وخليفته سيد سليمان الندوى طبقا لوصيته وما تركه من مادةعلمية لإكمال هذا العمل الموسوعى الضخم. وهذه السيرة بمثابة كنز هائل من المعلومات فى الأدب والتاريخ وعلوم الاجتماع والاقتصاد والنقد والكلام ويتميز بالبحث المتانى والاعتماد على الرواية والدراية وسيّر الرجال وأعمال الخبرة الواسعة والنظرة العميقة وتقديم الإجابات الدامغة والدلائل الناصعة ودحض أباطيل المستشرقين. وقد قدم شبلى لسيرة النبى بمقدمتين.

وقد أشار شبلى فى المقدمة الأولى «سيرة النبى» إلى القواعد والأسس المنهجية التى سوف يتبعها فى تأليفه لسيرة النبى وهى:

١ – أن تكون أولوية أحداث السيروة أولا للأحداث الخاصة بالسيرة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ومن الثابت قطعا أن القرآن به كثير من الإشارات المتعلقة بوقائع السيرة النبوية فى القرآن ذاته إلا أن الناس لم ينظروا إلى هذه الآيات نظرة متفحصة.

٢ – يأتى الاعتماد على الأحاديث الصحيحة فى السيرةالنبوية فى المرتبة التالية بعد القرآن حيث إن الأحداث التى ورد ذكرها فى البخارى ومسلم تتفوق على ما جاء فى كتب التاريخ والسيّر الأخرى ومن أفدح الأخطاء التى وقع فيه كتّاب السيّر أنهم لم يبحثوا جيدا عن أحداث السيرة فى كتب الأحاديث مع أنها تمتلئ بوصف جميع الأحداث وصفا ضمنيا ولهذا لو تم استقراء عام لها لوجدنا جميع الأحداث الهامة مذكورة فى الصحاح الستة. وعلى هذا فأهم ميزة فى هذا الكتاب هو اعتماده على روايات الحديث فى كثير من الأحداث بعد البحث عنها وإعدادها وتقديمها بصورة مناسبة وهذا ما غفل عنه أصحاب السيّر تماما.

٣ – أن الروايات العامة لابن سعد وابن هشام والطبرى تعدى كافية فى الأحداث العامة أما الأحداث الهامة فقد قام شبل بنقدها وتحقيقها بقدر المستطاع ولهذا فإن أول عمل قام به فى سبل إنجاز هذه المهمة هو فصل جمع فيه رواة ابن هشام وابن سعد والطبرى وقد تجاوز عددهم الآلاف وإعداد جدول لجرحهم وتعديلهم فى كتب أسماء الرجال حتى تحقق الهدف المقصود لسلسلة الرواية بسهولة.

٤ – إصلاح العيوب التى وقع فيها كتاب السِّير من قبل[١].

---

(١) شبلى: سيرة النبى. الفيصل. اردو بازار. ط٤. لاهور. ١٩٩١م ص: ٧٤.

وبعد أن حدد شبلى الإطار المنهجى لمؤلفه «سيرة النبى» ذكر عدة نقاط خاصة بالمصادر الهامة التى عوّل عليها ولخص ملاحظاته على المصادر فى عدة نقاط هى:

١ – اكتفاؤه بالإحالة إلى المصادر التى فى حوزته فقط.

٢ – رجوعه إلى الروايات التاريخية الموثوق بها والأحاديث الصحيحة فقط فيما يتعلق بأى من الأحداث الهامة أما فى الأحداث والغزوات العامة فلم يهتم باختلاف الروايات.

٣ – بالنسبة للمصادر المطبوعة أشار شبلى إلى اسم المطبعة وحدد اسم النسخة فى المخطوطات التى اعتمد عليها[١].

وشبلى – كما هو واضح الآن – دقيق للغاية فى تحديد منهجه ومصادره وكان المحدثون المسلمون مثله الأعلى فى ذلك حيث أن «ما قام به المسلمون من حفظ وتدقيق واستقصاء لأحوال الرسول وسيرته – ﷺ – لا يدانيهم فيه أمة من الأمم فلم يتم حتى اليوم تدوين سيرة شخص ما بكل هذه الدقة والحيطة والشمول ولا يمكن أن يتم ذلك فى المستقبل حيث تم تدوين أحوال ووقائع حياة ثلاثة عشر ألفا من الذين التقوا بالرسول أو رأوه وذلك بهدف التأكد من صحة سيرة الرسول»[٢]. ولهذا لا يمكن أن تخضع «سيرة النبى» لما تخضع له غيرها من السيّر من نقد وبحث مستفيض بعد أن رأينا هذه الدقة فى جمعها وتدوينها.

ولم يكتف شبلى بوضع أصول وقواعد منهجية خاصة بتأليف «سيرة النبى» بل وضع قواعد عامة لفن كتابة السيرة النبوية ينبغى أن يلتزم بها كاتب السيرة وهى:

١ – أن يتم البحث عن الواقعة أولا فى القرآن الكريم ثم فى الأحاديث الصحيحة تليها الأحاديث العامة وروايات السيرة.

٢ – تحتاج كتب السيرة إلى تنقيح كما أن رواياتها فى حاجة إلى نقد الإسناد.

٣ – تعد روايات السيرة من حيث درجة صحتها فى مرتبة أقل من روايات الحديث لذا يتم ترجيح روايات الأحاديث دائما عند الاختلاف.

٤ – يتم تفضيل رواة الأحاديث على رواة السيرة عند الاختلاف.

---

(١) شبلى: سيرة النبى: ٧٥.

(٢) المرجع السابق: ٢٥.

٥ – الاهتمام بالعلة والمعلول فى بحث أحداث السيرة.

٦ – تحديد معيار للشهادة طبقا لنوع الحدث.

٧ – تحديد أصل الحدث فى الروايات والرأى الشخصى للراوى.

٨ – معرفة مدى تأثير الأسباب الخارجة على الحدث.

٩ – أن الروايات لا تكون جديرة بالحجة ما دامت تخالف الدلائل الحالية والأصول المسلمة والشواهد العامة والعقل.

١٠ – يجب التدقيق فى الروايات للتأكد من أن الراوى لم يخطئ فى أداء المفهوم.

١١ – قبول روايات الآحاد طبقا لأهمية الموضوع والدلائل الحالية(١).

لقد كانت فكرة كتابة «سيرة النبى» فى ذهن شبلى منذ تأليف سيرة الفاروق خاصة وأن اللغة الأردية كانت تفتقر إلى هذه السيرة وكان كثير من المسلمين فى الهند لا يعرفون اللغة العربية فكانت الحاجة ماسة إلى كتابة «سيرة النبى»، ولأن «هذه السيرة القدسية ضرورية للعالم كافة وليس لنا كمسلمين فقط كما أن أهمية هذه السيرة ليست إسلامية ودينية فحسب بل لها أهمية علمية وأخلاقية وحضارية وأدبية» وهى على حد قول شبلى «دائرة المعار ف النبوية».

ويذكر شبلى سبب تأليف «سيرة النبى» وتردده بسبب حساسية هذا الموضوع، فالبطل هذه المرة لم يكن شخصا عاديا بل هو رسول الإنسانية آخر من وطئ الحصا. يقول: «لم أكن جاهلا بهذا الأمر وهو أن من واجباتى كمسلم هو أن أنجز «سيرة النبى» قبل جميع مؤلفاتى إلا أن هذا الأمر كان دقيقا وحساساً إلى هذه الدرجة فلم أجرؤ على الاقتراب منه إلا أننى رأيت أن أهمية إنجاز هذا العمل تتضاعف وتزداد وفى نفس الوقت كان المؤلفون الأوربيون يصورون أخلاق الرسول تصويرا لا يليق به ويوجهون له نقدا قاسيا فى حين أن مسلمى الهند فى العصر الحالى محرومون تماما من معرفة العلوم العربية ولهذا فإنه لو احتاج المسلمون إلى معرفة سيرة الرسول وسيرة حياته فإنهم يضطرون إلى الرجوع إلى الكتب الأوربية فى هذا الصدد وبالتالى يتأثرون تدريجيا بأفكارهم المسمومة فتنشأ فى المجتمع جماعة تعتبر الرسول مجرد مصلح اجتماعى مهمته إصلاح المجتمع ولذا فإن هذه الأحداث أجبرتنى فى النهاية على كتابة «سيرة النبى» وكان هذا العمل يبدو هينا

---

(١) شبلى: سيرة النبى: ٦٤ – ٦٥.

فى الظاهر إلا أننى لم أجد كتابا كتب فى السيرة قبل ذلك يلتزم بالروايات الصحيحة وهذا ما صرح به الحافظ زين الدين العراقى[1] أستاذ ابن حجر[2] فى قوله: «وليعلم الطالب أن السيرًا ∴ تجمع ما صح وما قد أنكرا» ولهذا السبب كانت المؤلفات المسلم بها تحتوى على كثير من الروايات التى أفدت منها كثيرا»[3].

ولسوء الطالع لم أكن أعرف(*) أى لغة أوربية لذا كنت فى حاجة إلى إدارة للتاليف يجتمع فيها العارفون باللغة العربية[4] واللغات الغربية».

وقد بدأ شبلى المجلد الأول بمقدمة طويلة تناول فيها التحليل التفصيلى لفن الدراية وفن أسماء الرجال كما أنه تناول استعراض عابر لفن السيرة والمغازى وكبار كتاب هذا الفن كالواقدى ومحمد بن إسحاق وابن هشام وابن سعد وغيرهم، وقد أعد شبلى فهرسا طويلا بأهم مؤلفى السيرة النبوية مثل: عروة بن الزبير، والشعبى[5] ووهب بن منبه

---

(١) الحافظ العراقى (٧٢٥ - ٨٠٦ هـ - ١٣٢٥ - ١٤٠٤م).

عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحيم أبو الفضل، زين الدين، المعروف بالحافظ العراقى. بحاثة، من كبار حفاظ الحديث. أصله من الكرد ومولده فى رازنان (من أعمال أربيل) تحول صغيرا مع أبيه إلى مصر، فتعلم ونبغ فيها وقام برحلة إلى الحجاز والشام وفلسطين، وعاد إلى مصر فتوفى فى القاهرة. من كتبه: «المغنى عن حمل الأسفار» فى تخريج أحاديث الأحياء، و«نكت منهاج البيضاوى فى الأصول»، و«ذيل على الميزان» و«الألفية» فى مصطلح الحديث وشرحها و«فتح المغيث» و«التحرير» فى أصول الفقه، و«نظم الدرر الحسنية» منظومة فى السيرة النبوية وغيرها. (الأعلام: ٣/ ٣٤٤).

(٢) ابن حجر العسقلانى (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ - ١٣٧٢ - ١٤٤٩م).

احمد بن على بن محمد الكنانى العسقلانى، أبو الفضل شهاب الدين بن حجر. من أئمة العلم والتاريخ، أصله من عسقلان بفلسطين ومولده ووفاته بالقاهرة. ولع بالأدب والشعر ثم أقبل على الحديث ورحل إلى اليمن والحجاز لسماع الشيوخ وعلت له شهرة فقصده الناس للاخذ عنه وأصبح حافظ الإسلام فى عصره ولى قضاء مصر عدة مرات. أما تصانيفه فكثيرة جليلة منها «الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة» أربعة مجلدات، و«لسان الميزان» ستة مجلدات تراجم، و«الإحكام لبيان ما فى القرآن من الاحكام» وديوان شعر طبع فى الهند، و«الإصابة فى تمييز أسماء الصحابة» و«تهذيب التهذيب» فى رجال الحديث اثنا عشر مجلداً وغيرها. (الأعلام: ١/ ١٧٨ ، ١٧٩). (دائرة المعارف الإسلامية: ١/ ١٣١).

(٣) شبلى: سيرة النبى: ٢٢.

(*) ما يقصده شبلى هنا انه لا يجيد لغة أوربية إجادة كاملة، فهو يعرف اللغة الفرنسية التى تعلمها من السير توماس آرنولد إلى جانب الإنجليزية. (الباحث).

(٤) شبلى: سيرة النبى: ٢٢ - ٢٥.

(٥) الإمام الشعبى (١٩ - ١٠٣هـ = ٦٤٠ - ٧٢١م).

عامر بن شراحبيل بن عبد ذى كبار الشعبى الحميرى، محدث راوية من التابعين يضرب المثل بحفظه =

وعاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى، وموسى بن عقبة الأسدى وغيرهم وأعد قائمة طويلة مثل: الروض الآنف لعبد الرحمن السهيلى، وسيرة الدمياطى للحافظ عبد المؤمن الدمياطى وسيرة ابن عبد البر وغيرها وقارن بين السيرة والحديث وكتاب السيّر والمحدثين والإشارة إلى الكتب الأوربية التى تناولت موضوع السيرة(١).

وفى المقدمة الثانية يعرض شبلى تاريخ العرب السياسى والدينى والعقائدى والحضارى القديم وتاريخ بناء الكعبة(٢). ويتناول المجلد الأول أخبار الرسول منذ الولادة حتى الوفاة والمغازى والأخلاق والسلوك والعادات وزوجات الرسول.

ويحتوى المجلد الثانى على حياة النبى ودعوته للإسلام وتأسيس الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة ووصف شمائله. وقبل أن نختتم الحديث عن «سيرة النبى» يعن لنا هذا السؤال وهو هل «سيرة النبى» سيرة أو «تاريخ»؟

إننا لو قمنا بدراسة سريعة لكتاب «سيرة النبى» يتضح لنا أنه كتاب فى «السيّر» بالمعنى العام المعروف وليس تاريخا فهو مؤلف جامع وشامل لسيرة رسول الله - ﷺ - مع أن هذا الكتاب «سيرة» إلا أنه «تاريخ» كذلك لكنه ليس محدودا بالتاريخ والسيرة فقط بل أدرجت فيه مراحل التاريخ الإسلامى ويحتوى على بحوث فى العقائد الإسلامية، وعلى هذا فإن «سيرة النبى» تعد نوعا أدبيا خاصا نصفها تاريخ ونصفها الآخر سيرة.

وقد تناولنا «سيرة النبى» هنا بتحفظ شديد ولم نخض فيها كما خضنا فى كتب سير

= ولد ومات بالكوفة وهو من رجال الحدث الثقات استقضاه عمر بن عبد العزيز وكان فقيها شاعرا.
وكان قد رأى خمسمائة من الصحابة، وكان من العلماء المسلم بهم فى العراق والشام، قال عنه الإمام الزهرى: العلماء أربعة فقط ابن المسيب فى المدينة، والحسن فى البصرة، ومكحول فى الشام، والشعبى فى الكوفة. ويقول صاحب جمهرة أنساب العرب: هو محدث مات بمكة أصله من جند اليمن. وهناك خلاف على تحديد تاريخ وفاته يقول ابن سعد فى الطبقات الكبرى قال أخبرنا أبو نعيم الفضل بن دكين قال: توفى الشعبى سنة أربعة ومائة. قال محمد بن سعيد: توفى سنة ثلاث ومائة.
(ابن حزم الأندلسى: جمهرة أنساب العرب: دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى. بيروت. ١٩٨٣ ص: ٤٤٣).
ابن خلكان: وفيات الأعيان. تحقيق: إحسان عباس. الجزء الثالث، دار الثقافة. بيروت. ١٩٦٨ ص٣/١٢ - ١٦.
ابن سعد: الطبقات الكبرى: الجزء السادس. دار صادر بيروت (ب.ت) ٦/٢٤٦ - ٢٥٦).

(١) المرجع السابق: ١٩ - ٧٥.

(٢) المرجع السابق: ٧٦ - ١٠٧.

شبلى الأخرى، لأسباب عدة منها أن بطل هذه السيرة هو محمد رسول الله - ﷺ - وأن ما كتب فى سيرته الشريفة يغطى جميع جوانب حياته الكريمة ولا يحتاج إلى المزيد من التفصيل(١).

الغـــزالى

سيرة الغزالى التى نتناولها الآن هى جزء من مشروع موسوع ضخم خطط له شبلى ويضم إلى جانب هذه السيرة مؤلفات أخرى هى: «علم الكلام» و«الكلام الحديث» وسيرة حياة أئمة هذا الفن وقد خطا شبلى خطوات عملية فاخرج كتابيه «الكلام» و«علم الكلام» فى سيرة «الغزالى» التى نحن بصددها الآن.

وقد وضع شبلى منهجه وحدد أدواته ومصادره التى اعتمد عليها سواء كانت مصادر عربية أو أجنبية بوضوح تام نعهده فى جميع مؤلفاته فى السيرة. وقد بذل شبلى جهدا جهيدا للبحث عن وقائع حياته فى كتب الطبقات والرجال حيث «لم يؤلف أى كتاب مستقل فى سيرة الغزالى، فى حين حوت كتب التراجم والرجال عموما على ترجمة له بقدر من التفصيل ومن أهم هذه الكتب (تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الأشعرى» و«طبقات الشافعية» والكتاب الأول للعلامة ابن عساكر الدمشقى وهو فى سيرة الإمام أبى الحسن الأشعرى وجاءت ترجمة الغزالى فيه ضمنا وطبع هذا الكتاب فى أوربا، والكتاب الثانى من تاليف ابن السبكى ولا يوجد كتاب يدانيه فى فن الرجال وما يوجد فيه من سيرة حياة الغزالى لا يتوافر فى كتاب آخر ولهذا فإننى اعتمدت عليه فى تدوين سيرة الغزالى على هذين الكتابين، أما فيما يتعلق بأفكاره ومعتقداته فقد عولت فيها على مؤلفاته العديدة الموجودة عندى كما رجعت إلى كتاب المستشرق مونك Munk «العلاقات بين الفلسفة اليهودية والعربية MELANGES.DE. PHILOSOPHIE JUIVE ET. ARAB»(٢).

ولد حجة الإسلام محمد بن محمد بن أحمد الغزالى فى قرية طاهران بطوس من أعمال خراسان عام ٤٥٠هـ، وكان أبوه يعمل فى بيع الصوف والغزال ولهذا اسمى بالغزالى نسبة إلى الغزل. وقد ناقش شبلى الآراء المختلفة حول هذا النسب فقال «كتب

---

(١) انظر: مولوى عبد العليم احرارى: سيرة نبوى اورمستشرقين. معارف اعظم كَرط هـ ١٩٣٠م ص: ١٨ - ٢٥.

(٢) شبلى: الغزالى: مطبعة أعظم كَرط هـ ١٩٢٨م ص١-٣ (المقدمة).

السمعانى فى كتابه الأنساب أن غزالة إحدى قرى طوس وكان يقطنها الغزالى . وعلى هذا فإن كلمة « غزالى » فى رأيه تكتب بالتخفيف وليس بالتشديد وقد نقل ابن خلكان هذا الرأى عند ذكر ترجمة الإمام أحمد الغزالى الأخ الأصغر للإمام الغزالى وقال : هذا الرأى على خلاف آراء جميع المؤرخين الآخرين على الرغم من أن بعض المؤرخين يويدون السمعانى ويرى الفيومى فى المصباح أن الشيخ محى الدين حفيد الغزالى من الجيل السابع يقول : أن اسم جدنا بالتخفيف وليس[1] بالتشديد » إلا أننا نميل إلى الرأى الأول الذى يرى أن الغزالى بالتشديد وأكبر دليل على هذا أن طوس ليس بها قرية تسمى غزالة .

وقد حرم أبو الإمام الغزالى من التعليم ولذلك عندما أحس بدنو أجله عهد إلى أحد أصدقائه بتعليمه هو وأخيه الصغير الإمام أحمد الغزالى، وعمل هذا الصديق بوصية صديقه وبدأ الإمام الغزالى التعليم الابتدائى وعندما انتهى من تحصيله الأولى نفدت الأموال التى أوقفها والده لتعليمه هو وأخيه فاتجها إلى التعليم المنزلى وكان مشهورا فى عصره حيث كان هناك العديد من الأئمة يدرسون فى منازلهم أو فى المساجد حيث يتحلق الطلبة حولهم ويتكفل الأمراء والأثرياء بالإنفاق على هؤلاء الطلاب ودفع الرواتب للمدرسين . وهكذا « بدأ الإمام الغزالى يتلقى دروس الفقه الأولية على يد أحمد بن محدم الرادكانى ثم قصد جرجان لتلقى العلم على الإمام أبى نصر الإسماعيلى وكان من عادة الطلاب آنذاك أن يدونوا ما يقوله الأستاذ ويحفظوه بعناية ويسمون هذه المذكرات « تعليقات » وقد أعد الإمام الغزالى مجموعة من هذه التعليقات واستعد للعودة إلى بلدته وفى أثناء عودته قطع عليه الطريق وأخذ العيارون جميع ما معه فتتبعهم وتوسل إلى رئيسهم أن يرد إليه تعليقته التى لا فائدة له منها، فقال الرئيس . ما تعليقتك؟ فقال الغزالى : كتب تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها . فقال الرئيس ضاحكا كيف تدعى أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من علمها وبقيت بلا علم . واكتفى بهذا اللوم وأمر بعض أصحابه بتسليم المخلاة إليه : قال الغزالى هذا مستنطق أنطقه الله يرشدنى به أمرى فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنوات حتى حفظت جميع ما علقته وصرت بحيث لو قطع علىّ الطريق لم أتجرد من علمى »[2] .

---

(١) المرجع السابق : ١-٢ .

(٢) الغزالى : شرح إحياء العلوم : ١ / ٥ . وشبلى العزالى ٢ ٣

ثم رحل الغزالى بعد ذلك إلى نيسابور ليكمل تعليمه وكانت هى وبغداد مركزا للعلوم والثقافة الإسلامية يؤمه العديد من الطلاب ويشد إليها الرحال من جميع الأنحاء لطلب العلم على علمائها وعلى رأسهم إمام الحرمين(١).

ويقول المستشرق الفرنسى مونك Munk فى كتابه «العلاقات بين الفلسفة اليهودية والعربية»: «ولد الغزالى الذى يعد من أشهر علماء الإسلام فى عصره والذى ينتمى إلى المذهب الشافعى المحافظ فى مدينة طوسى بخراسان سنة ٤٥٠هـ ودرس أولا فى مسقط رأسه ثم انتقل إلى نيسابور وأظهر منذ البداية موهبة فذة اكسبته معارفة الواسعة فى الدين الإسلامى وفى الفلسفة ثقة الوزير «نظام الملك» وزير ملكشاه السلجوقى فعهد إليه بإدارة المدرسة النظامية التى أسسها فى بغداد»(٢).

وهنا يصحح شبلى خطأ تاريخيًا انتشر فى الأوساط العلمية فيقول: «لقد اشتهر فى العالم الإسلامى أن أول مدرسة أسست فيه هى المدرسة النظامية ببغداد ويزعم ابن خلكان هذا الزعم كذلك والحقيقة أن هذا الشرف استحقته نيسابور قبل بغداد بوقت طويل حيث أقيم بها مدارس كثيرة مثل: البيهقية والسعدية والنصرية والأخيرة نسبة إلى نصر بن سبكتكين أخى السلطان محمود الغزنوى»(٣).

ويتفق الباحث مع رأى شبلى فى أن المدرسة النظامية فى بغداد لم تكن أول مدرسة أسست فى العالم الإسلامى بل سبقتها عدة مدارس فى نيسابور وأن هذا الخطأ التاريخى مرجعه إلى ما ذكره ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان. وقد أكدت الدراسات الحديثة كذلك رأى شبلى يقول ناجى معروف فى كتابه «نشأة المدارس المستقلة فى الإسلام»: «هذا بحث موجز فى نشأة المدارس المستقلة فى الإسلام رأيت أن يطلع عليه اخوانى المعلمون والمدرسون، أول مدرسة أنشئت فى الإسلام مستقلة عن المسجد. وقد أوردت

---

(١) الاسم الأصلى لإمام الحرمين هو عبد الملك ولقبه ضياء الدين، تلقى تعليمه الأولي على يد والده ثم تتلمذ على أبى القاسم الاسكافى للدرس الأول في المدرسة البيهقية ثم توجه إلى بغداد وأتم تعليمه بها ثم عاد إلى نيسابور موطنه، وقام بالتدريس وفي ذلك الوقت أمر السلطان السلجوقى ألب أرسلان بجعل أئمة المساجد يلعنون الإمام ابا الحسن الأشعرى في خطبهم وكان إمام الحرمين أشعريا فلم يستسغ هذا الأمر فرحل إلى الحرمين وصارت له مكانة عظيمة وحلقة درس وتأتيه الفتاوى من مكة والمدينة وبناء على هذا اللقب لُقب بإمام الحرمين (الغزالى: ٤).

(2) Munk, oar. s: Melanges de philo sophie Juive et Arabe. Paris. 1927 p.366.

(٣) شبلى: الغزالى: ٤.

من النصوص المعتبرة والوثائق التاريخية ما يفيد أن المدارس المستقلة فى الإسلام انشئت قبل النظامية بأكثر من قرن من الزمان »[١].

ويظهر أن شمس الدين بن خلكان المتوفى سنة ٦٨١هـ ومن بعده شمس الدين الذهبى المتوفى فى سنة ٧٤٨هـ كانا يريان أن الوزير السلجوقى نظام الملك أول من أحدث المدارس فى الإسلام وشايعهما على ذلك كثير من المؤرخين. قال ابن خلكان: « وهو أول من أنشأ المدارس فى الإسلام فاقتدى به الناس وشرع فى عمارة مدرسة ببغداد سنة سبع وخمسين واربعمائة »[٢].

ولكن السبكى الشافعى رد على الشيخ الذهبى بقوله فى ترجمة نظام الملك: « وشيخنا الذهبى زعم أنه أول من بنى المدارس، وليس كذلك فقد كانت المدرسة « البيهقية » بنيسابور قبل أن يولد نظام الملك، والمدرسة السعدية بنيسابور أيضا بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود لما كان واليا بنيسابور ومدرسة ثالثة بنيسابور أيضا بنيت للأستاذ أبى إسحق الاسفراينى »[٣].

ويقول المقريزى: « أول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة فى الإسلام أهل نيسابور فبنيت بها المدرسة البيهقية وبنى بها أيضا الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة، وبنى بها أخو السلطان محمود بن سبكتكين مدرسة، وبنى بها أيضا المدرسة السعيدية وبنى بها مدرسة رابعة وأشهر ما بنى فى القديم المدرسة النظامية ببغداد »[٤].

وقد واصل الغزالى تعليمه على إمام الحرمين الذى كان « يحضر حلقة درسة أربعمائة طالبا وعندما أتم تعليمه كان يتفوق على جميع أقرانه حتى عين معيدا عليهم فكان يقوم بشرح الدروس للطلاب مرة أخرى وفى عام ٤٧٨هـ توفى إمام الحرمين وتأثر الناس فى نيسابور جميعا بوفاته وهجر تلاميذه العلم وظلوا فى مأتم وحزن عليه لمدة عام وقد ذكر ابن خلكان أن الغزالى نال شهرة واسعة فى حياة إمام الحرمين وكتب عدة مؤلفات استحسنها أستاذه وعندما توفى أستاذة كان فى ذلك الوقت لا يدانيه عالم فى جميع

---

(١) ناجى معروف: نشأة المدارس المستقلة في الإسلام. مطبعة الأزهر. بغداد. ١٩٦٦م ص: ٣.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٢/١٢٩.

(٣) ناجى معروف: المرجع السابق: ٦.

(٤) المقريزى: خطط المقريزى. المكتبة الحجازية – الإسكندرية (ب.ت) ٢: ٣٦٣.

كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية. دار العلم للملايين. ط٨. بيروت. ١٩٧٩م: ٢٧٤ – ٢٧٥.

الدول الإسلامية وكان عمره ثمانية وعشرين عاما فقط »[١].

وقد فصل شبلى القول فى ذكر الحالة السياسية والتعليمية فى عصر الغزالى فقال: « كانت الدولة العباسية فى أطوارها المتدنية حيث استقل كل جزء منها بالحكم الذاتى وظهر العديد ممن أدعوا الملك وعلى رأسهم الأتراك فسيطروا على جميع الممالك وصار الجزء الأكبر من العالم الإسلامى فى حوذتهم آنذاك، وتجمعت مقاليد الحكم التركى فى يد السلاجقة وكان أول ملك فى هذه الأسرة هو طغرل بك الذى استولى أولا على طوس عام ٤٢٩هـ ثم اتولى تدريجيا على العراق فى عام ٤٤٧هـ ثم توفى عام ٤٥٥هـ وخلفه ابنه ألب أرسلان ثم ابنه ملك شاه الذى وصلت الدولة فى أيامه إلى أوج ازدهارها وسلطتها، ويذكر ابن خلكان أن مملكة ملكشاه بلغت من السعة ما لم تبلغه أى مملكة أخرى فكانت تمتد طولا من كاشغر آخرمدن تركستان على حدود الصين حتى بيت المقدس وعرضا من القسطنطينية حتى بحر الخزر وقد أقام الطرق والجسور فى طول البلاد وعرضها وأوقف جباية الضرائب وانتشر الأمن والأمان بين الرعية وكانت القوافل تخرج من التركستان قاصدة الشام بدون حراسة وقد ازدهرت الدولة السلجوقية فى عهد ملكشاه بفضل تدبير وحكمة الوزير نظام الملك »[٢].

وقد توطدت العلاقات بين الغزالى والوزير السلجوقى نظام الملك وقام الغزالى فى ذلك الوقت بتأليف رسالة « العقائد والوعظ إلى ملكشاه » فى النصح لهذا الملك يقول فيها « اعلم يا سلطان العالم وملك الشرق والغرب أن الله تعالى أنعم عليك نعما ظاهرة وآلاء متكاثرة يجب عليك شكرها ويتعين إذاعتها ونشرها ومن لم يشكر نعمة الله تعالى فقد عرض تلك النعم للزوال وخجل من تقصيره يوم القيامة وكل نعمة تفنى بالموت فليس لهاعند العاقل قدر ولا عند اللبيب خطر لأن العمر وإن تطاولت مدته لا ينفع طوله إذا انقضى عدده فإن نوحا عليه السلام عاش ألف سنة وكأنه لم يكن فالقدر للنعمة التى تبقى عليك على الدوام مدى الليالى والأيام وهى نعمة الإيمان الذى هو بدرالسعادة المؤبدة والنعمة المخلدة والله جلت قدرته خولك هذه النعمة وزرع بدر الإيمان فى صفاء صدرك وأودعه فى قلبك وسرك ومكنك فى تربية ذلك البدر وأمرك أن تسقيه من ماء الطاعة حتى تصير شجرة أصلها فى قعر الأرض السفلى وفرعها فى السموات العلى واعلم

---

(١) شبلى: الغزالى: ٦.

(٢) شبلى: الغزالى: ٧.

أن لهذه الشجرة عشرة أصول وعشرة فروع فأصلها الاعتقاد بالجنان وفرعها العمل بالأركان »(١).

وقد وصف شبلى الحالة النفسية للغزالى فى بداية حياته وصفا دقيقا فقال: « كان الغزالى يحب الجاه ويهوى المنصب وكان مغرورا بعلمه فى بداية حياته ولذا نجده يترك حلقات التدريس ويتوجه لبلاط نظام الملك الذى عرف عنه إجلاله للعلماء وكانت شهرةالغزالى قد جابت الأفاق فأحسن نظام الملك استقباله وأعد له حفلا عظيما اجتمع فى كبار الأمراء والأثرياء ووجهاء المنطقة وكانت المناظرات العلمية هى هى الطريقة المثى آنذاك لإظهار كماله وعلمه فتفوق الغزالى بمناظراته على جميع المناظرين وأقيمت له المجالس الحافلة فى جميع المدن الكبرى وكان الجميع ينتظرونها بشوق وشغف وحاز الغزالى قصب السبق فى هذا الميدان وذاعت شهرته فى الخافقين واختاره نظام الملك مدرسًا أولاً فى المدرسة النظامية ولم يتعد الرابعة والثلاثين وبدأ عمله فى التدريس فى بغداد فى جمادى الأول ٤٨٤هـ وقد علت مكانته كما يذكر السبكى فى طبقات الشافعية بأنه لم يكن يعقد أمر هام من أمور الدولة دون مشورته وكان محترما فى بلاط السلاجقة والعباسيين على السواء وقد توسط فى سفارة لحل مشكلة سياسية نشبت بين تركان خاتون والخليفة العباسى المقتدر بالله شارك الغزالى أركان الدولة فى هذه البيعة وقام الغزالى بتأليف كتاب للرد على الباطنيين بأمر من الخليفة المستظهر بالله وقد أشار الغزالى إلى ذلك فى كتابه « المنقذ من الضلال » وكان يحضر فى حلقات درسه ثلاثمائة مدرس ومائة اقطاعى وكانت مجالسه الوعظية بمثابة محاضرة علمية وقد قام ابن اللبان بتدوين ١٨٣ خطبة له ونشرت باسم « مجالس غزالية »(٢).

بعد ذلك حدث انقلاب فى حياة الغزالى فهجر الدنيا بزهوها وزخرفها وجاهها وآثر العزلة والسياحة فى القفار والفيافى ومع أن كثيرا من العلماء وكبار الصوفية هجروا الحياة قبل الغزالى واتجهوا إلى التصوف إلا أن أسباب هجر الدنيا عند الغزالى كانت جديدة من نوعها كما ذكرها الغزالى نفسه فى كتابه « المنقذ من الضلال »: « لم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين، أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته.. وأتفحص عن عقيدة كل فرقة واستكشف أسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع لا أغادر

---

(١) الغزالى: رسالة العقائد والوعظ إلى ملكشاه. الطبعة الأولى. مطبعة السعادة. مصر ١٩٠٧م ص: ٦١.

(٢) شبلى الغزالى: ٨-١٢.

باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطانته ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ولا متكلما إلا واجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ولا زنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لاسباب جرأته فى تعطيله وزندقته وقد كان التعطش إلى إدراك حقائق الامور دأبى ديدنى فى أول أمرى وريعان عمرى»(١).

ويقول شبلى يصف مقدمات هذا التحول الكبير فى حياة الغزالى «فالتعليم الذى تلقاه الغزالى يقتضى منه ألا يلتفت إلى مذاهب أخرى غير مذهب أهله وكان هذا حال جميع معاصريه، وبقدر ما كان موجودا من فرق ومذاهب إلا أنها لم تكن لها تأثير بسبب نفوذ السلاجقة فى نيسابور أما بغداد فقد كانت ساحة لأفكار ومعتقدات الدنيا كلها وكان كل شخص يطؤها حرا فيما يعتقد ويقول ما يقول من آراء ونتيجة حرية العقيدة نشبت مئات من المعارك المذهبية بين الشيعى والسنى والمعتزل والزنديق والملحد والمجوسى والمسيحى وقد التقى الغزالى بأهل هذه الفرق والمذاهب عندما وصل إلى بغداد ونتيجة لهذا الاختلاط بالفرق المختلفة حدث انقلاب كبير فى أفكار الغزالى»(٢).

ويصور شبلى الصراع الداخلى لما عاناه الغزالى من عراك باطنى، ويعد هذا الاعتراف وثيقة نفسية ذات قيمة كبيرة آنذاك، ولهذا سوف نذكرها هنا باختصار لقيمتها في بحثنا. يقول الغزالى: «تحرك باطنى إلى طلب حقيقة الفطرة الأصلية وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والتمييز بين هذه التقليدات وأوائلها تلقينات وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات فقلت في نفسى أولا إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور فلابد من طلب حقيقة العلم ما هى فظهر لى أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقي معه ريب ولا يقارنة امكان الغلط والوهم ولا يتسع القلب لتقدير ذلك بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقينى، ثم فتشت عن علومى فوجدت نفسى عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات فلابد من أحكامها أولا لاتبين ان ثقتى بالمحسوسات وأمانى من الغلط في الضروريات من جنس أمانى الذى كان من قبل فى التقليدات ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات.. ثم ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته وطالعت كتب

(١) الغزالى: المنقد من الضلال. ط ١ . مطبعة الجمالية – ١٣٢٩هـ ص: ٣-٤.

(٢) شبلى: الغزالى: ١٢ – ١٣.

المحققين منهم وصنفت فيه ما أردت أن أصنف فصادفته علما وافيا بمقصوده غير واف بمقصودى.. ثم إنى ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة أعاوده وأردوه واتفقد غوائله وأغواره حتى اطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس وتحقيق، وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم سمة الكفر والإلحاد(١).

ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتى على طريق الصوفية وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب من غير الله تعالى وتخليقه بذكر الله وكان العلم أيسر علىّ من العمل فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبى طالب المكى رحمه الله وكتب الحارس المحاسبى والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلى وأبى يزيد البسطامى وغير ذلك من كلام مشائخهم حت اطلعت على كنه مقاصدهم العملية وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقتهم بالتعليم والسماع وظهر لى أن أخص خواصهم ما لم يمكن الوصل إليه بالتعليم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات... ثم لاحظت أحوالى فإذا أنا منغمس فى العلائق وقد أحدقت بى من الجوانب ولاحظت أعمالى وأحسنها التدريس والتعليم فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت أنى على شفا جرف هار فلم أزل اتفكر فيه وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال، فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبا من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين واربعمائه وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أورى فى نفسى سفر الشام»(٢). وكان خروج الغزالى إلى الشام فى ذى القعدة سنة ٤٨٨هـ كما ذكر ابن خلكان ويصف شبلى الحالة الجديدة للغزالى فيقول: «لقد ترك الغزالى لبس الملابس غالية الثمن وارتدى الخرقة وهجر مطايب الطعام وأقبل على خشنه وقديده وعندما وصل إلى الشام بالمجاهدة والرياضة الروحية فكان يصعد كل يوم إلى مئذنة المسجد الأموى الغربية ويقضى اليوم كله فى الأذكار والمراقبة وظل على هذه الحالة سنتين متصلتين ومع هذا لم يترك الاشتغال بالعلم فكان يجلس فى الجانب الغربى من

(١) الغزالى: المنقذ من الضلال: ٥ و٧ و٨ و٩.

(٢) المرجع السابق: ٢٤ – ٢٧.

المسجد الأموى ويدرس فيه بصفة دائمة. ثم توجه الغزالى إلى بيت المقدس بعد أن قضى عامين فى الشام وظل فى أثناء زيارته لبيت المقدس يتردد على قبة الصخرة ويغلقها عليه وينصرف إلى المجاهدة والعبادة، ثم توجه لزيارة مقام الخليل إبراهيم عليه السلام ثم قصد مكة والمدينة بنية الحج وبقى فى مكة فترة من الوقت وفى أثناء السفر زار مصر وبقى فى الإسكندرية فترة من الوقت، ويذكر ابن خلكان أن الغزالى كان يريد أن يذهب من هناك إلى مراكش للقاء يوسف بن تاشفين المرابط إلا أن يوسف توفى فى هذه الفترة فرجع عن قصده»(١).

وقد صادف الغزالى فى سفره هذا العديد من المواقف المؤثرة منها أن أحد الأشخاص رآه وهو يرتدى الخرقة ويحيا حياة الزهاد وكان قد رآه من قبل يدرس لأربعمائه طالب فتملكته الدهشة وقال له أهذه الحالة أفضل من التدريس فنظر الغزالى إليه بحنق وقرأ بيتين من الشعر :-

تركت هوى ليلى وسعدى بمنزل ... وعدت إلى مصحوب أول منزل
فنادت بى الأشواق مهلا فهذه ... منازل من تهوى رويدك فانزل

وذات يوم كان الغزالى يزور مهد سيدنا عيسى وبصحبته بعض كبار الصوفية وهم :-

إسماعيل الحاكمى وإبراهيم الشباكى وأبو الحسن البصرى وغيرهم فأنشد هذين البيتين فى حالة وجد :-

فديتك لولا الحب كنت فديتنى ... ولكن بسحر المقلتين سبيتنى
أتيتك لما ضاق صدرى عن الهوى ... ولو كنت تدرى كيف شوقى أتيتنى(٢)

وقد ناقش شبلى مسألة تأليف كتاب الغزالى الشهير «إحياء علوم الدين» واعتراض بعض المؤرخين على تأليف الغزالى هذا الكتاب فى أثناء سفره فقال: «ذكر ابن الأثير أن الإمام الغزالى ألف كتابه «إحياء علوم الدين» فى أثناء سفره وتجواله وقراه آلاف المحبين وقد رفض بعض المؤرخين المشهورين ذلك بناء على أنه لا يمكن أن يؤلف هذا النوع من الكتب فى هذا السفر الشاق إلا أن الغزالى صرح فى كتابه «المنقذ من الضلال» أنه كان دائم البحث والتحصيل فى أثناء سفره رغم عزلته وبهذا الاعتراف يمكن لنا أن نؤكد على أنه كتب كتاب الإحياء فى سفره»(٣).

(١) شبلى : الغزالى : ١٥ – ١٨ .
(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين : ٢/١٠٥ .
(٣) شبلى : الغزالى : ١٩ .

ويتناول مونك Munk أهم مؤلفات الغزالى فيقول: «إن «إحياء علوم الدين» هو أهم كتبه ويتكون من أربعة مجلدات تناول فيها الاحتفالات الدينية والأحكام الخاصة بشئون الحياة المختلفة والفضائل والرذائل. وترك الغزالى عزلته وذهب إلى نيسابور ثم أدار مدرسة بغداد واعتزل الحياة مرة أخرى وبنى محرابا للصوفية وقضى بقية عمره فى التأمل وأعمال البر، وبإمكاننا أن نجد تفصيلات كاملة عن حياة الغزالى فى مقدمة كتاب «أيها الولد» كتبها المستشرق هامر Hammer»(١).

وفى كتاب «أيها الولد» يقول الغزالى: «أيها الولد النصيحة سهل والمشكلة قبولها لأنها فى مذاق متبع الهوى مر إذ المناهى محبوب فى قلوبهم على الخصوص لمن كان طالب العلم الرسمى واشتغل فضل الفقه والنفس ومناقب الدنيا فإنه يحسب أن العلم المجرد وسيلة سيكون نجاته وخلاصة فيه وأنه يستغنى عن العمل وهذه اعتقاد الفلاسفة»(٢).

ثم يقول: «أيها الولد خلاصة العلم أن تعلم أن العبادة والطاعة ما هى، أعلم أن العبادة والطاعة متابعة الشرع فى الأوامر والنواهى بالقول والعمل يعنى كلما تقول وتفعل وتترك قولك وفعلك يكون باقتداء الشرع»(٣).

وفى عزلة الغزالى تم له صفاء النفس وانكشاف الحجُب وزال الشك وانقشعت سحب التردد وظهر الحق وعندئذ فكر فى الخروج من عزلته وفى هذا الوقت «طلب منه السلطان سنجر أن يعود مرة أخرى للتدريس فتأمل الغزالى فى هذا الأمر وشاور أصدقاءه من الصوفية فأشاروا عليه ترك الخلوة وظهر له فى الحلم كبار الصوفية يحثونه على ترك الخلوة وظهرت له فكرة الحديث النبوى القائل «إن الله يبعث على رأس كل قرن من يجدد» وبالصدفة ولم يكن يبقى على القرن الخامس إلا شهر واحد فبدأ الغزالى فى التدريس بالمدرسة النظامية بنيشابور فى ذى القعدة ٤٩٩هـ وبدأ نجم الغزالى يتلألأ فى سماء عليين وكثر الحاقدون عليه وخاصة أن الغزالى قد انتقد العلماء بشدة فى «إحياء علوم الدين» واتهمهم بالنفاق والرياء مما جعلهم يقفون ضده وحاولوا إفساد العلاقة بين السلطان سنجر وبيته وأخذوا يبحثون على دليل فى كتبه يتخذونه ضده أمام السلطان سنجر

---

(1) Munk, Par. S. : Melanges de philosophie Juivet et Arabe: 367- 367.

(٢) الغزالى : كتاب أيها الولد . استانبول . ١٩٠٥ م ص٣.

(٣) الغزالى : المرجع السابق : ١٦ – ١٧ .

ووجدوا ضالتهم المنشودة فى كتاب «المنخول» وهو كتاب فى أصول الفقه كتبه الغزالى فى بداية شبابه وانتقد فيه الإمام أبا حنيفة بشدة وبكلمات غير لائقة فوجدوا فى ذلك دليلاً لإدانته خاصة والسلطان سنجر وأسرته من أشد المؤيدين لأبى حنيفة فأحضروا هذا الكتاب للسلطان وزينوا فى عينيه أن الغزالى يؤمن بالأفكار الملحدة فأمر السلطان بأن يحضر الغزالى للبلاط فكتب الغزالى خطابا له بالفارسية يعتذر عن الذهاب للبلاط لأنه أخذ على نفسه عهداً فى مقام إبراهيم بألا يذهب إلى بلاط ملك وعندما قرأ السلطان الخطاب ازداد شوقا للقائه ليقف بنفسه على معتقداته وأمر أن يعد مكانا للمناظرة ودعى إليه جميع العلماء وحضر الغزالى وفند جميع مزاعمهم وعانقه السلطان زيادة فى كرمة واعترف بعلمه وعندما عاد إلى طوس استقبله أهله استقبالا حافلا وأعدوا له احتفالا كبيرا ونثروا عليه الدر والجواهر وخمدت الفتنة»[1].

وفى هذه الفترة حاول أحمد بن نظام الملك أن يجعل الغزالى يعود إلى التدريس فى المدرسة النظامية فى بغداد «فأرسل له خطابا يحثه فيه على قبول هذا الأمر ولجأ كثير من الناس والعلماء إلى خليفة بغداد المستنصر بالله ليستدعى الغزالى إلى بغداد إلا أن الغزالى رفض بصراحة وقال إنه لا يستطيع أن يترك أكثر من مائتين وخمسين طالبا فى طوس وتعلل له بانشغاله بأهله وأولاده وعدم استطاعته لقاء الملوك فى بلاطهم للعهد الذى أخذه على نفسه من قبل. وكان الغزالى لم ينته فى أثناء تعليمه من فن الحديث فبدأ يتوجه إليه ويتلقى دروسه على المحدث المشهور عمر بن أبى الحسن الرواسى وكان فى طوس بالصدفة وظل الغزالى يتعبد ويقضى ليله ونهاره فى الرياضة الروحية والمجاهدة ورغم ذلك لم يترك الاشتغال بالتأليف والعلم وكتب كتابه العظيم «المستصفى» فى أصول الفقه سنة ٥٠٤هـ وتوفى بعده بعام»[2].

وتوفى الإمام الغزالى يوم الإثنين ١٤ جمادى الآخرة ٥٠٥هـ فى طاهران وروى ابن الجوزى قصة وفاته نقلا عن أخيه أحمد الغزالى يقول: «نهض الإمام الغزالى يوم الإثنين من فراشة فتوضأ وصلى ثم طلب الكفن وحدق بعينيه وقال: جاء حكم السيد (الله) ثم تمدد ومات» وبكاه الناس والشعراء ولم يترك الغزالى أولادا ذكورا ولم يكن عنده سوى بنت واحدة اسمها «ست المنى» بينما ترك آلاف التلاميذ والمحبين كان بعضهم من المشاهير مثل محمد بن تومرت الذى قضى على أسرة تاشفين فى الأندلس وأسس مملكة

---

(١) شبلى: الغزالى: ٢٠ – ٢٥.

(٢) المرجع السابق: ٢٦ – ٢٨.

عظيمة الشأن وأبى بكر العربى من علماء الأندلس»[1] وقد ذكر شبلى فهرسا طويلا بأسماء تلاميذه.

* * * *

وفى الجزء الثانى من سيرة «الغزالى» تناول شبلى مؤلفات الإمام الغزالى وآراءه فى علم الكلام والفلسفة وعلوم الدين يقول: «التأليف عند الغزالى من الأمور المحيرة التى تحتاج إلى تأمل ففى خلال خمس وخمسين سنة هى سنوات عمره ألف مئات الكتب ويحتوى بعضها على عدة مجلدات وفى موضوعات متباينة على الرغم من أنه بدأ التأليف فى سن العشرين كما أنه ظل أحد عشر عاما يطوى الصحراء واستمر فى التدريس فلم يقل عدد تلاميذه فى وقت من الأوقات عن مائتين وخمسين تلميذا إلى جانب الفتاوى التى كانت تأتيه للفتوى باستمرار»[2].

وقد قام شبلى بتصنيف مؤلفات الغزالى رأسيا وأفقيا من حيث الشكل والمضمون وأعد فهرسا إجماليا لها مرتبة حسب ترتيب الحروف الأبجدية كما يلى:-

(١) حرف الألف: إحياء علوم الدين، وإملاء على مشكل الأحياء، والأربعين، والأسماء الحسنى، والاقتصاد فى الاعتقاد، وإلجام العوام، وأسرار معاملات الدين، وأسرار الأنوار الإلهية، وأخلاق الأبرار، والنجاة من الأشرار، وأسرار اتباع السنة، وأسرار الحروف والكلمات، وأيها الولد.

(٢) حرف الباء: بداية الهداية، والبسيط فى الفقه، وبيان القولين للشافعى، وبيان فضائح الإباحية وبدائع الصنع.

(٣) حرف التاء: تنبية الغافلين، وتلبيس إبليس، وتهافت الفلاسفة، والتعليقة فى فروع المذهب، وتحصين الأدلة، والتفرقة بين الإسلام والزندقة.

(٤) حرف الجيم: جواهر القرآن.

(٥) حرف الحاء: حجة الحق وحقيقة الروح.

(٦) حرف الخاء: خلاصة الرسائل إلى علم المسائل فى المذهب، واختصار المختصر للمزنى.

(٧) حرف الراء: الرسالة القدسية.

---

(١) المرجع السابق: ٢٨ - ٣١.

(٢) المرجع السابق: ٣١ - ٣٣.

(٨) حرف السين: السر المصون.

(٩) حرف الشين: شرح دائرة على بن أبى طالب المسماة لجنة الأسماء، وشفاء العليل فى مسئلة التعليل.

(١٠) حرف العين: عقيدة المصباح، وعجائب صنع الله، وعنقود المختصر.

(١١) حرف الغين: غاية الفور فى مسائل الدور فى مسئلة الطلاق وغور الدور.

(١٢) حرف الفاء: فتاوى مشتملة على مائة وتسعين مسئلة، والفكرة والعبرة وفواتح السور، والفرق بين الصالح وغير الصالح.

(١٣) حرف القاف: القانون الكلى، وقانون الرسول، والقربة إلى الله، والقسطاس المستقيم وقواعد العقائد، والقول الجميل فى الرد على من غير الإنجيل.

(١٤) حرف الكاف: كيمياء السعادة، وكشف علوم الآخرة، وكنز العدة.

(١٥) حرف اللام: اللباب المنتحل فى علم الجدل.

(١٦) حرف الميم: المستصفى فى أصول الفقة، والمنخول، ومآخذ فى الخلافيات بين الحنفية والشافعية، والمبادىء والغايات، والمجالس الغزالية، ومقاصد الفلاسفة، والمنقذ من الضلال، ومعيار النظر، ومعيار العلم فى المنطق، ومحك النظر، ومشكاة الأنوار، ومستظهرى فى الرد على الباطنية، وميزان العمل، ومواهم الباطنية، والمنهج الأعلى، ومعراج السالكين، ومسلم السلاطين، ومفصل الخلاف فى أصول القياس، ومنهاج العابدين، والمعارف العقلية.

(١٧) حرف النون: نصيحة الملوك.

(١٨) حرف الواو: الوجيز والوسيط.

(١٩) حرف الياء: ياقوت التأويل فى التفسير (فى أربعين مجلدا).

ثم قام بعد ذلك بترتيبها من حيث الموضوع مثل كتب الفقة وأصول الفقة والمنطق والفلسفة والكلام والتصوف والأخلاق. وبعد ذلك قام شبلى ببحث فى صحة نسب مؤلفات الغزالى إليه وخرج بنتيجة هامة هى «أن بعض مؤلفات الغزالى الشهيرة لم تكن من تاليفه وهى: «المنخول» و«المضنون به على غير أهله» و«النفخ والتسوية» و«سر العالمين»[١].

---

(١) شبلى: الغزالى: ٣٤ – ٣٦.

وأشار شبلى إلى أهمية مؤلفات الغزالى وشهرتها بين الناس عوامهم وخواصهم "فقد نقل النووى فى كتابه "البستان" أن رجلا من الثقات أحصى مؤلفات الغزالي بالنسبة لعمره فوجده يكتب فى اليوم حوالى ستة عشر صفحة رغم مشاغله الكثيرة وأن ما قام به من استدلال منطقي لاثبات تحريف القرآن والانجيل يعد دليلا واضحا لوقوفه بما فيها من أخبار. وقد أكد على هذا المعنى فى كتابه "ياقوت التأويل" فى التفسير ويقع فى أربعين مجلدا وأن شهرة مؤلفاته تدعو إلي الدهشة ، ثم يقول المحدث زين الدين العراقي " أن إحياء علوم الدين " من أفضل المؤلفات الإسلامية ولم يكتب أى كتاب قبله وقد حفظه الصوفى الكبير عبد الله عيدروس كاملا" . (١)

وقد ظهرت طبعات عديدة لمؤلفات الغزالى واعتنى بها العلماء فى العالم الإسلامى وكتبوا شروحا عليها وطبعت بعناية وتحقيق فى أوربا وخاصة كتبه : مقاصد الفلاسفة والمنقذ وتهافت الفلاسفة وميزان العمل . ولم ينس شبلى الإشارة إلي أشعار الغزالى ونقل عدة رباعيات من أشعاره عنه تذكرة مجمع الفصحا وروضات الجنات وذكر أن فن الرباعى من فنون الشعر الفارسى التي ازدهرت فى العصر السلجوقي الذى عاش فيه الغزالى وقارن بين بعض رباعيات الغزالى ورباعيات الفارابى وابن سينا وأشار إلي أشعار الغزالى التي نظمها باللغة العربية فقال : " إن أشعار الغزالى التي تتناقلها كتب التذاكر عامية ولا تتناسب مع أشعاره الفارسية التي تميزت بالرصانة والقوة واحتوائها على كثير من المعارف والحقائق " . (٢)

ويركز شبلى على القضايا الفقهية والكلامية والفلسفية التي وردت فى كتاب الغزالى " إحياء علوم الدين " وترك شبلى الحديث عن اختراعات الغزالى واستنباطاته واجتهاداته فى الفقه بدعوى أن مسلمي الهند لم تكن لديهم دراية كاملة بالفقة الشافعي لأنهم جميعا أحناف علي مذهب أبى حنيفة !!

والقى شبلى الضوء بصفة خاصة على فلسفة الأخلاق عند الغزالى " فقد كان فن الأخلاق والمواعظ فى الإسلام مواكبا للإسلام ذاته إلا أن الجانب الفلسفى فيه يبدأ مع ترجمة كتب العلوم والفنون اليونانية إلي العربية حيث ترجم حنين بن اسحق كتابى أرسطو في علم الأخلاق ولأرسطو كتاب آخر هو " فضائل النفس " قام أبو عثمان

---

(١) شبلى : الغزالى : ٣٧-٤٠ .

(٢) المرجع السابق : ٤٢-٤٤ .

الدمشقي بترجمته للعربية وكتب جالينوس بعض المسائل الأخلاقية وذكرها ابن مسكويه فى كتابه " تهذيب الأخلاق " وقام الفلاسفة المسلمون بتاليف كتب مستقلة في فن الأخلاق بمساعدة هذه الكتب "آراء المدينة الفاضلة " لابي نصر الفارابى" و "البر الإثم " لابن سينا و " تهذيب الأخلاق " لابن مسكويه وجميع هذه الكتب فلسفية ولا صلة لها بالدين وكذلك كتبت مؤلفات دينية مثل " قوت القلوب " لابى طالب المكي و " الذريعة إلى مكارم الشريعة " للراغب الأصفهانى وعندما جاء الغزالى تلافى عيوب الكتب الفلسفية والدينية فى كتابه " إحياء علوم الدين " (١).

وأسهب شبلى فى وصف كتاب الإحياء للغزالى فبين خصائصه العامة والخاصة وأعد فهرسا بأسماء الذين اختصروه وذكر الكتب التي نسج الغزالى على منوالها وعقد مقارنة بين كتاب "قوت القلوب " و"الإحياء" وبين الأفكار التي أخذها الغزالي عن أبى طالب المكى ونقل شبلى نقولاً عربية عديدة استعان بها لتوضيح فكرته وتركها كما هى باللغة العربية ودون ترجمة وذلك فى آداب الطعام والسماع والتوكل وفضل الجوع والترويح وغيرها. فيقول : عن الترويج "على أني أقول اللهو ترويج للقلب ومخفف عنه أعباء الكفر ، والقلوب إذا كرهت عميت وترويحها إعانه لها على الجد ، والمواظب على نوافل الصلاة في سائر الأوقات ينبغى أن يتعطل فى بعض الأوقات فالعطلة معونة على العمل واللهو معين على الجد " . ويقول عن التوكل والتواكل " اعلم أن العلم يورث الحال والحال يثمر الأعمال وقد يظن أن معني التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاه وكاللحم على الوضيم وهذا ظن الجهال فإن ذلك حرام فى الشرع" (٢)

وكشف شبلى عن أهم مميزات كتاب الإحياء ببحث قيم عن فلسفة الأخلاق فيه فكان يذكر الفكرة ثم يردها إلي مصدرها الأصلى فتحدث عن الخلق وقوة الغضب وفى ثنايا الحديث يوجه نقدا اجتماعياً للتعليم فى الهند فى المدارس العربية وغيرها من المشاكل والقضايا الاجتماعية ويرى شبلى أن "الغزالى لم يكتف بمزج الفلسفة بالأخلاق بل أضاف كثيرا إلي فن الأخلاق فكانت فلسفة الأخلاق عند اليونانيين فيض من غيض وقليل من كثير " . (٣)

---

(١) المرجع السابق : ٤٥ – ٤٧ .

(٢) المرجع السابق :٥٧ – ٥٩ .

(٣) شبلى : الغزالى : ٦٢ – ٧١ .

ثم تحدث شبلى عن الأمراض الاجتماعية الفتاكة التي أشار إليها الغزالى مثل الرياء حيث قسمه إلي رياء واضح ورياء خفى ورياء مخفى واقترح لها العلاج بعد التشخيص، يقول عن الإخلاص : " قال رويم : الإخلاص فى العمل هو ألا يريد صاحبه عليه عوضا فى الدارين وهذه إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا، والعابد لأجل تنعم النفس بالشهوات فى الجنة معلول بل الحقيقة ألا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى ، فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلي حظوظ العاجلة وإلا فهو فى طلب حفظ البطن والفرج " . (١)

وقد أشار شبلى إلى علم الكلام عند الغزالي ومكانته بين المتكلمين حيث " اشتهر الغزالى بصفة عامة بعلم الكلام كما عرف ارسطو بالمنطق وقد زعم ابن خلدون صراحة أنه " لم يكن هناك ثمة مزج بين الفلسفة وعلم الكلام فكان الغزالي أول من استخدم الأسلوب الفلسفى فى هذا الفن " إلا أن هذا الرأى خطأ فبعد بحث مفصل فى تاريخ العلم يتضح أن علم الكلام بدأ على طريقتين هما : العقلية والنقلية وأن الفرق الإسلامية مثل المعتزلة والقدرية والجبرية هم الذين اخترعوا الأسلوب الفلسفى فى علم الكلام وكان أبو هذيل العلاف صاحب هذا السبق وطوره الغزالى ولهذا انخدع ابن خلدون وظن أن الغزالى هو مخترع هذا الفن – أى علم الكلام – بدحض الفلسفة وردها واثبات العقائد الإسلامية وقد هاجم الغزالى الفلسفة وكتب فى ذلك كتابه " تهافت الفلاسفة " وحدد الغزالي المسائل التي رفضها فى الفلسفة بعشرين مسالة " (٢)

وأورد شبلى رأى الغزالى فى علم الكلام القديم فيقول : "أما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ماهي عليه وهيهات فليس فى الكلام وفاء بهذا الطلب الشريف ولعل التخليط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف وهذا إذا سمعته من محدث أو حشري ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلي منتهى دركة المتكلمين وجاوز ذلك إلي التعمق فى علم آخر تناسب نوع الكلام " . (٣)

ثم قام شبلى ببحث أهم القضايا الكلامية عندا لغزالى مثل ، صفات الباري كالتنزية والتشبية والنبوة والمعجزات والثواب والعقاب والبعث وأحداث ما بعد الموت .

---

(١) المرجع السابق : ٨٠ – ٩١ .

(٢) المرجع السابق : ٩٣ – ١٠٣ .

(٣) المرجع السابق : ١٢٠ .

ولما كان للتصوف مكانة بارزة ودور هام فى حياة الغزالى فقد أفرد له شبلى مساحة مناسبة لأهميته فتحدث فى البداية عن ظهور التصوف وحقيقته واستعرض آراء كبار الصوفية " فقبل الغزالى لم يكتب فى التصوف كتاب بأسلوب علمى جامع سوي رسالة القشيرى بينما كان الإمام الغزالى أول شخص يرتب هذا الفن بطريقة علمية . يقول ابن خلدون فى مقدمته " وجمع الغزالى بين الأمرين في الإحياء فدون فيه أحكام الورع والاقتداء ثم بين آداب القوم وسنتهم وشرح اصطلاحاتهم في عباداتهم وصار علم التصوف فى الملة علما مدونا بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط " (١)

السيرة الأدبية

سوانح مولانا روم :-

"سوانح مولانا روم (٢)" هى سيرة حياة شاعر الصوفية الأعظم جلال الدين الرومي وقد تناولها شبلى من زاوية جديدة لم يعتدها الناس من قبل ، فالمتعارف عليه أن الرومى قطب من أقطاب التصوف السني وصاحب طريقة عرفت به هي الطريقة المولوية ، والرومى شاعر من أكبر شعراء الشعر الصوفى حيث ترك فيه كاب " المثنوى المعنوى "فى تسعة مجلدات من أروع ما كتب فى هذا الفن الشعرى ويعد من أعظم الملاحم الشعرية فى العالم وقد وضع اسمه فى مصاف الشعراء . إلا أن شبلى يأتى ويضع الرومى فى زمرة المتكلمين ، ومع أن تدوين " سيرته من هذه الناحية وإدراجه ضمن علماء الكلام ربما يثير تعجب الناس إلا أنه فى رأينا أن علم الكلام الأصلى هو شرح عقائد الإسلام وإلقاء الضوء على حقائقها حتي تستقر تلقائيا فى القلب وقد أدى الرومى هذا الغرض باتقان شديد قلما نجد له مثيلا عند شعراء الصوفية الآخرين ولهذا فإن اقصاءه عن زمرة المتكلمين يعد ظلما شديدا" (٣) وقام شبلى بناء على هذه الفرضية بتناول سيرة جلال الدين الرومى كمتكلم من الطراز الأول وعرض أهم القضايا الكلامية التي تعرض لها .

---

(١) المرجع السابق : ١٥٧ – ١٦٥ .

(٢) هناك كتب عديدة ألفت عن سيرة حياة جلال الدين الرومى منها الفارسية : " خلاصة مثنوى" لبديع فروزان فر، " لب لباب مثنوى " لملا حسين كاشفى " سيري درديوان شمس ، لعلى دشتي ، " رسالة فريدون بن احمد سيه سالار " تحقيق سعيد نفيسى ، " مناقب العارفين ومرآة الكاشفين "للأفلاكى ، وبالعربية " جلال الدين الرومى فى حياته وشعره " لمحمد عبد السلام كفافى وغيرها.

(٣) شبلى : سوانح مولاناروم : مجلس ترقى دب . ط ١ . لاهور . ١٩٧١ م ص : ١٣ .

ويبدأ شبلى سيرة الرومى – كعادته – بذكر المصادر التي اعتمد عليها والمنهج الذى سار عليه فى تدوين هذه السيرة يقول : "توجد حياة مولانا فى التذاكر العامة باختصار وقد اعتمدت فى سيرته على كتابين هما : رسالة سبه سالار وكان مريدا مخلصا للرومى ومن المقربين لديه وقد ظل وقتا طويلا فى صحبته وكتب رسالة مستقلة فى سيرة مولانا جلال الدين ، والكتاب الآخر هو "مناقب العارفين ومرآة الكاشفين " وقد كتب هذا الكتاب طبقا للذوق القديم لهذا قلما نجد فيها الأمور الهامة عن حياته ومنهجه وشعره، ولكي أتلافى هذا النقص تناولت شعر مولانا بالتفصيل وبصفة خاصة "المثنوى"(١) إذا شبلى هنا يعتبر شعر الرومى مصدرا هاما من مصادر سيرته وما عرف عنه من أفكار وبذلك يسير على المناهج الحديثة فى كتابه فن السيرة .

وقسم شبلى " سوانح مولانا روم " إلى جزأين ، تناول فى الجزء الأول اسمه ونسبه ومولده وتعليمه وتربيته وأولاده وأصحابه ومريديه والمعاصرين له وختم هذا الجزء بالحديث عن أخلاقه وعاداته . وفى الجزء الثانى تحدث عن مؤلفاته وعن علم الكلام الذى يعد "المحرك الأول " الذى دفع شبلى لكتابة سيرته وتناول بالتفصيل أهم القضايا الكلامية التي طرحها الرومي فى شعره مثل : ذات الله وصفاته والنبوة والروح والميعاد والجبر والقدر والتصوف والتوحيد ومقامات السلوك والعبادة والفلسفة .

وبدأ شبلى سيرة مولانا جلال الدين الرومى بالحديث عن البيئة السياسية والإجتماعية التي عاش فيها بطل السيرة واستهلها بذكر نسبه الذى ينتهي إلي سيدنا أبى بكر الصديق فهو " محمد بن محمد بن محمد بن حسين بن أحمد بن قاسم بن المسيب بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن أبي بكر ، ولقبه جلال الدين وعرف واشتهر بمولانا رومى وقد ذكر سبه سالار أن حسين البلخى هو جده الأعلى وكان من كبار الصوفية ويسعي إليه الحكام فى عصره ويكرمونه ويبجلونه، وقد زوجه السلطان محمد خوارز مشاه ابنته فولدت له " بهاء ولد " لذا فالسلطان محمد خوارزمشاه خال بهاء الدين وجد مولانا. وقد لقب والد جلال الدين بهاء الدين واستوطن " بلخ" وكان وحيد زمانه في الوعظ والتدريس ويأتيه الناس من مختلف البقاع والأصقاع فى خراسان طلبا لفتواه وكان بهاء الدين متمسكا بالكتاب والسنة ويهاجم في مجالس وعظة الفلسفة اليونانية وعلمائها ويتوعد الذين يهتمون بها ويلقون كتاب الله وراء ظهورهم ".(٢)

---

(١) شبلى : المرجع السابق : ١٤ .

(٢) المرجع السابق : ١٥ – ١٨ .

ونتيجة لموقف بهاء الدين من الفلاسفة والفلسفة حدث تصادم وخصومة مع الإمام فخر الدين الرازى وكان من خاصة السلطان خوارزمشاه قرر على أثره ترك "بلخ" والهجرة إلى أرض الروم (تركيا) ولم يعبأ بتوسلات العلماء ولا برجاء مريديه ولا بطلب السلطان له بالقاء ، وشد بهاء الدين الرحال قاصدا آسيا الصغرى، وفى عام ٦١٠ هـ وصل نيسابور " والتقي بفريد الدين العطار وكان عمر مولانا جلال الدين فى ذلك الوقت ست سنوات وأمر العطار بهاء الدين أن يتولي الرومى برعايته ويقال أنه أهداه نسخة من مثنوية المشهور " أسرار نامه " وقد اتفقت معظم كتب التذاكر على ذلك وذكرت هذا اللقاء بين أكبر قطبين من أقطاب الشعر الصوفى . ويتناول شبلى بعد ذلك الحالة السياسية لذلك العصر باختصار شديد يقول " كان الفرع الثالث من السلاجقة قد عرفوا بـ " بلاد الروم " وظلت هذه الأسرة فى الحكم مائتين وعشرين سنة من خلال أربعة عشر حاكما وكان قتلمش أول حاكم في هذه الأسرة وقد قتل قتلمس على يد ألب أرسلان فى حرب دارت بينهما عام ٤٥٦ هـ وعندما هاجر والد جلال الدين إلى بلاد الروم كان السلطان كيقباد على عرش الحكم وتوفى عام ٦٣٤ هـ وخلفه ابنه غياث الدين كيخسرو " . (١)

وبعد أن ذكر شبلى بعض وقائع حياة والده بهاء الدين عاد مرة أخري ليذكر بداية سيرة جلال الدين فيقول : ولد مولانا فى بلخ عام ٦٠٤ هـ وتلقى تعليمه الأولى على يد والده الشيخ بهاء الدين وكان " السيد برهان الدين محقق " من كبار مريدى الشيخ بهاء الدين فعهد إليه بتربية والده جلال الدين فصار أستاذه الخاص حيث تلقى مولانا أكثر العلوم والفنون على يديه وعندما أصبح فى الثامنة عشرة من عمره هاجر مع أبيه إلي قونية، وعندما توفى أبوه سافر إلي الشام عام ٦٢٩ هـ ليكمل تعليمه وكان فى الخامسة والعشرين من عمره ودمشق وحلب آنذاك مركزا للعلوم والفنون وقد ظهر لديه شغف كبير فى، تحصيل أعلى درجات العلم: يقول صاحب الجواهر المضيئة: " كان عالما بالمذاهب واسع الفقه عالما بالخلاف وأنواعه " والمثنوى ذاته يعد دليلا قاطعا على مدى إلمامه بالعلوم والثقافات المتعددة " . (٢) ويؤكد شبلى على تاثير علوم الأشاعرة فى روايات المثنوى .

والحقيقة أن جلال الدين الرومى ولد فى عصر ملئ بالخلافات والفتن والقلاقل السياسية حيث اجتاحت فيه جحافل التتار العالم الإسلامي فحطمت وخربت وقتلت

---

(١) شبلى : سوانح مولانا روم : ١٩ – ٢٠ .

(٢) المرجع السابق : ٢٣ – ٢٤ .

ونشرت الخراب والظلام بين ربوع العالم الإسلامي وفى هذا العصر الذي لا يساعد على ظهور الشعراء والمبدعين بزغ نجم جلال الدين فنادى فى شعره الصوفى إلي العودة إلى الله والحياة الروحية التي كانت من الطبيعي أن تكون ملاذا للجميع فى ذلك الوقت . وعندما عاد جلال الدين إلي قونية عام ٦٣٨ هـ تلقي العلوم الباطنية على يد أستاذه سيد برهان الدين محقق الترمذى الذى وصل إلي قونية عندما علم بوفاة شيخه بهاء الدين والد مولانا جلال الدين ويمكن الرجوع إلي كتاب " مناقب العارفين ومرآة الكاشفين " لمعرفة المزيد عن هذا اللقاء الثاني بين جلال الدين وبين أستاذه وكان مولانا حتى ذلك الوقت يغلب عليه " الاهتمام بالعلوم الظاهرية حيث كان يدرس العلوم الدينية ويخطب فى الناس ويفتي ويحترز جدا من السماع وعلوم الباطن " (١) حتي كان نقطة التحول فى حياته عندما التقى بشمس تبريزى الذى وجهه إلى التصوف والتأمل والعرفان الكامل ولعل هذا التحول يذكرنا بتحول الغزالى الذى أشار إليه فى كتابه " المنقذ من الضلال " .

وقد اختلفت كتب التاريخ والتذاكر وتناقضت فيما بينها عندما ذكرت قصة لقاء الرومى بشمي تبريزى حتى أصبح من المستحيل معرفة الواقعة الأصلية ، يقول شبلى " لقد جاء فى كتاب " الجواهر المضيئة " وهو من الكتب القيمة والموثوق فيها وأول كتاب تناول سيرة الأحناف يقول : " ذات يوم حضر مولانا (جلال الدين) إلى منزله وتحلق حوله تلاميذه وكانت أكداس الكتب مكومة في كل مكان فجأة ظهر شمس تبريزى من أحد الأركان فألقى عليهم السلام ثم جلس ووجه خطابه إلي مولانا وقال مشيرا إلي الكتب فقال : ماهذه ؟ فقال مولانا : هذه أشياء لا تعرفها ؟ ولم يكن قد انتهى من قوله حتى اشتعلت النيران في الكتب فقال مولانا : ما هذا ؟ قال شمس : هذه أشياء لا تعرفها ؟ ثم تركه شمس ومضى إلي حال سبيله فترك مولانا أولاده ومريديه ومنزله وخرج يبحث عنه فى كل مكان لكنه لم يعثر عليه ويقال إن تلاميذه قتلوه " (٢)

وتتعد الروايات على هذا النحو إلا أن أحداً منها لا يبين لنا الموطن الأصلى للتبريزى ولم تكشف أحد هذه الروايات الغموض الذى لف هذه الشخصية التي كان لها بليغ الأثر فى تغيير حياة جلال الدين وتوجيهه للتصوف وعلوم الباطن . وقد ذكر شبلى رواية تتسم بالطابع الشعبى وخرافة العامة عندما نقل رواية ابن بطوطة الرحالة العربى

---

(١) المرجع السابق : ٢٥ – ٢٦ .

(٢) شبلى : سوانح مولانا روم : ٢٦

الشهير الذى زار قبر جلال الدين فى قونية بعد وفاته بفترة من الزمن يقول : " يذكر أنه كان في ابتداء أمره فقيها مدرسا يجتمع إليه الطلبة بمدرسته بقونيه فدخل يوما إلي المدرسة رجل يبيع الحلوي وعلى رأسه طبق منها ، وهي مقطعة يبيع القطعة بفلس فلما أتى مجلس التدريس قال له الشيخ هات طبقك فاخذ الحلواني قطعة منها وأعطاها للشيخ فأخذها بيده وأكلها فخرج الحلوانى ولم يطعم أحداً سوي الشيخ ، فخرج الشيخ فى أتباعه وترك التدريس فأبطأ على الطلبة وطال انتظارهم إياه فخرجوا فى طلبه فلم يعرفوا له مستقرا ثم إنه عاد إليهم بعد أعوام ، وصار لا ينطق إلا بالشعر الفارسى المتعلق (المثنوى) الذى لا يفهم ، فكان الطلبة يتبعونه ويكتبون ما يصدر عنه فى ذلك الشعر والفوا منه كتابا سموه المثنوى ، وأهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ويعتبرون كلامه ويعلمونه يقرؤنه بزواياهم فى ليالى الجمعات " . (١)

ويبدوا أن مولانا قد تعلق كثيرا بشمس تبريزى حتى أهمل تلاميذه ومريديه "فازداد حقدهم على شمس تبريزى فسافر سراً إلى دمشق فحزن الرومى لفراقه ولم يقر له قرار ونظم فيه أشعارا تقطر عذوبة ورقة حتى اضطر ابنه " سلطان ولد " أن يذهب إلي دمشق ويأتي بشمس تبريزى وازداد تعلق مولانا به " . (٢) وعاد شمس تبريزى مرة أخري إلى دمشق وتوفى عام ٦٤٥ هـ وقد تاثر مولانا بفقده غاية التأثر فنظم ديوانا فى الغزل الصوفى سماه " ديوان شمس تبريز " .

وقد اختلف كتاب التذاكر والتوريخ على الفترة التي قضاها جلال الدين مع شمس تبريزى فبينما يذكر صاحب " مناقب العارفين " أن هذه العلاقة استمرت سنتين نجده سپه سالار "يذكر ان مولانا ظل ملازما لشمس تبريزي طيلة أربعين عاما . وفيما يتعلق بقتل شمس يقول شبلى " اتفقت جميع التذاكر على أن شمس تبريزى عندما كان مقيما عند مولانا قتله بعض المريدين بسبب الحسد . وقد جاء فى " نفحات الأنس " للجامى أن علاء الدين محمد بن مولانا جلال الدين هو الذى أقدم على هذا العمل عام ٦٤٥ هـ ومهما يكن من قتل شمس تبريزى أو اختفائه فإن هذا الأمر كان بمثابة الشرارة التي حركت عواطف مولانا فنظم غزليات موثرة للغاية " . (٣)

وكان لقاء الرومى بشيخه وملهمه شمس تبريزى نقطة تحول كبيرة فى حياة مولانا

---

(١) المرجع السابق : ٢٨ = ابن بطوطه : رحلة ابن بطوطه : ١٩٥ – ١٩٦ .

(٢) المرجع السابق : ٣٠ – ٣٤ .

(٣) المرجع السابق : ٣٦ – ٣٧ .

جلال الدين ولن نكون مبالغين حين نقول إن حياة مولانا تغيرت رأسا على عقب بعد هذا اللقاء المثير الذى نتج عنه آلاف من أبيات الشعر الصوفى العذب أودعها مولانا فى كتابيه الذائعين الصيت " ديوان شمس تبريزى " و " المثنوى المعنوى ؛ . وفيما يلى سوف نستعرض الروايات المختلفة حول هذا اللقاء . يقول الدكتور عبد الوهاب عزام: " جاء شمس الدين إلى قونية ونزل في خان شكرريز ويقال إن شيخه ركن الدين أرسله إلي جلال الدين ليدخله فى الطريق الصوفى . وتروي قصص عن اللقاء الأول بين جلال وشمس يراد بها تمثيل ما بين علماء الظاهر والصوفية من خلاف ، وتبيين سرعة تحول جلال الدين من هؤلاء إلي هؤلاء وتأثير شمس فى جلال ونفوذه إلي سرائره وتمكنه في قلبه لا يحتاج إلى بيان ، فأشعار جلال الدين فى المثنوى وديوانه الذى سماه ديوان شمس تبريز ، فياضه بالحب والإجلال والمبالغة فى إعظام شمس والاعجاب به . ثم أخذ جلال الدين يهجر درسه ويأنس إلي التبريزى ويخلو به ويسايره فى المتنزهات ورأى تلاميذ جلال الدين أن هذا الضيف العجيب أخذ يستبد بأستاذهم وبصرفه عن سبيله ويحيد به عن سنن العلماء فشاروا بهذا الدرويش واضطروه إلى أن يهرب من قونية إلي تبريز ولكن جلال الدين لم يصبر عنه ، فذهب إليه وأرجعه إلى قونيه ويقال إنه خرج إلى دمشق أيضا ، فأرسل جلال الدين ولده فرجع به إلى قونيه ثم تقع ثورة يختفى بعدها التبريزى وتنقطع أخباره وتختلف الأحاديث فى أمره ، فيقال إن شرطة السلطان قتلته ويقال قتله بعض تلاميذ جلال الدين وفي قونيه اليوم مزار لشمس الدين مشيد عليه قبة عالية وكانت وفاة التبريزى (١) فيما ظهر سنة ٦٤٥ هـ " . (٢)

بينما يقول الدكتور السباعي محمد السباعى " أن جلال الدين قد التقى بشمس الدين لأول مرة فى دمشق وكان اللقاء الثاني فى قونيه فقد وصل إليها شمس الدين ونزل فى خان شكر ، فردسان أو برنج فروشان فى يوم السبت السادس والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ٦٤٢ هـ وقصة اللقاء بينهما على النحو التالى : يقول الأفلاكى "

---

(١) هو محمد بن على بن ملك التبريزى . قيل ان نسبه ينتهي إلي كيابزرك اميد خليفة حسن الصباح شيخ الإسماعيلية . وكان أبو شمس الدين من الاسماعيلية فخالفهم واحرق كتبهم ودعا إلي الإسلام فى قلاعهم وأرسل ابنه شمس الدين إلى تبريز لتلقى العلم . ويقال أيضا أنه ولد فى تبريز ، وكان أبوه بزازا بها وأخذ التصوف عن شيوخ تبريز . وله سند فى الطريقة يذكره دولتشاه السمرقندى فى تذكرة الشعراء . (عبد الوهاب عزام : فصول من المثنوى . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة . ١٩٤٦م ص : ٩)

(٢) عبد الوهاب عزام : فصول من المثنوى : ١٠ – ١١ .

كان مولانا وتلاميذه من طلاب العلم راكبين الجياد خارجين من مدرسة بنيه فروشان واذا بشمس الدين يظهر أمامهم فجأة سائلا جلال الدين : أيهما أفضل بايزيد أم محمد فأجاب جلال الدين ماهذا السؤال ؟ ان محمداً خاتم الأنبياء فأية نسبه بينه وبين بايزيد ؟ فقال شمس الدين ان محمدا يقول ما عرفناك حق معرفتك ويقول سبحاني ما أعظم شاني فخر مولانا من على الجواد فاقد الوعى فلما أفاق أمسك بيد شمس الدين وترجل معه إلى المدرسة ودخلا حجرة واحدة مكثا فيها أربعين يوما وتختلف بعض تفصيلات هذه الرواية فى نسخة أخرى مخطوطة لمناقب العارفين " . وذكر الجامي هذه الرواية بإضافة واختلاف طفيف وذكر أن شمس هو الذى صاح وخر فاقدا الوعى (١)

ويقال إنهما بقيا ثلاثة أشهر فى تلك الحجرة ، يتحدثان ليلا ونهارا، وانصرف مولانا تماما عن التدريس والوعظ والتعليم ، وتفرغ لتبجيل الشيخ الأعظم ، فغضب لذلك علماء قونية ، وثاروا وتساءلوا : أى حالة هذه ؟ وأى رجل هذا الذي صرف مولانا عن منصبه وأصدقائه وأقاربه ؟ وأشاعوا الكثير من الترهات والأكاذيب .

وبهذا يصبح هذا اللقاء بداية لتحول الشاعر عن طريقه الذي اختطه لنفسه ، إلي طريق مختلف عنه كل الاختلاف ، ولعله مر بهذا التحول الذى مر به الغزالى وسجله فى اعترافه " المنقذ من الضلال " عندما تحول من التدريس إلى التصوف ولكن تحول جلال الدين كان فجائيا عنيفا ، على عكس تحول الغزالى الذى جاء بعد مرض وتفكير طويل وتدبر . ويرى على دشتي أن جلال الدين كان لديه استعداد قوي لمثل هذه الانطلاقة الروحية قبل لقاء شمس تبريزى . (٢)

ويذكر عناية الله إيلاغ الأفغانى لقاء الرومي بشمس تبريزى وتاثره به فى قوله : ما المقصود من الرياضيات والعلوم ؟ فرد جلال الدين بقوله : الإطلاع على آداب الشرع فقال شمس الدين : لا ، بل الوصول إلى المعلوم ، وذكر قول الصوفى المعروف حكيم السنائى : -

- إن العلم إذا لم يجردك من نفسك فالجهل خير منه

وبذلك تغير جلال الدين وكأنه صار هدفا لشمس الدين برميته . ولقد عكف

---

(١) السباعي محمد السباعي : جلال الدين الرومى وكتابه فيه ما فيه ص : ١٥

(٢) مريم محمد زهيري : الله والإنسان فى ديوان شمس تبريزى . رسالة دكتوراه مخطوطة بجامعة القاهرة ١٩٧٨م ص : ١٦ - ١٧ .

الباحثون فى بحثهم فى هذا الرجل الصوفى الجوال فى صلته بجلال الدين البلخى صلة روحية بحيث غير جلال الدين المدرس إلى صوفى يحب الانزواء ولا يذكر من الناس إلا شمس الدين وكان يقول : إن الشمس هو الذى أرانى طريق الحقيقة . وهو الذى أدين له فى إيماني ويقيني " . (١)

وبعد استعراض روايات لقاء جلال الدين بشمس الدين والتي تثبت تأثير شمس الدين فى جلال الدين هذا التأثير الذى ما كان أن يحدث لولا وجود الاستعداد الكامل والميل إلي التصوف والصوفية من جانب جلال الدين ولم يكن شمس الدين الشعلة التي أحجب نيران الشوق فى نفس جلال الدين فكان هذا التحول من حياة العلماء إلي حياة الصوفية وعلى هذا فإننى لا أميل إلى هذه الهالة الكبرى التي نسبها الرواة إلي شمس الدين والدور الذى قام به فى تحويل حياة الرومى لأن هذا الدور كان يستطيع أن يؤديه أى رجل صوفى .

وحرص شبلى على ذكر اثنين من خاصة مريدى جلال الدين وهما : صلاح الدين زركوب وحسام الدين حلبى " فقد كان لصلاح الدين دور بارز فى الوقوف بجانب مولانا فى أزمته العرفانية عندما غاب عنه شمس تبريزى وقد صاحبه حوالى تسعة أعوام متصلة وقد أشار إليه فى المثنوى غير مرة وقال فيه غزليات عظيمة وعندما مرض عام ٦٦٤ هـ وتوفى بعد عدة أيام وشارك مولانا وجميع تلاميذه فى جنازته ودفن بجوار والده تأثر مولانا بفراقة وقد أظهر هذا التأثر فى إحدى غزلياته وبعد وفاته كان حسام الدين جلبى من أقرب الخواص والمريدين إلى نفس مولانا ووقد بلغ مدى تقدير حسام الدين واحترامه لمولانا جلال الدين أنه لم يتوضأ فى المكان الذى يتوضأ فيه يوما واحدا بل كان يذهب إلى بيته ليتوضأ ويعود إليه رغم البرد القارس وسقوط الثلج وقد استجاب جلال الدين لرغبته عندما حثه على نظم المثنوي وقد أشار مولانا إلي هذا أكثر من مرة في " المثنوى " وعندما مرض مولانا مرضه الأخير وعجز كبار الأطباء فى علاجه وهما : أكمل الدين وغضنفر وأشرف على الموت استدعي تلميذه حسام الدين واستخلفه مكانه على الرغم من أن مولانا كان له ابن هو سلطان ولد وكان قد بلغ اسمي درجات الرفعة والسمو الروحي والعرفانى " (٢)

---

(١) عنايت الله إيلاغ الافغانى : جلال الدين الرومي بين الصوفية وعلماء الكلام . الدار المصرية اللبنانية الطبعة الأولى – ١٩٨٧ م ص : ٧٣ – ٧٤ .

(٢) شبلى : شوانح مولانا روم : ٣٨ – ٤٥

وتوفي جلال الدين فى جمادى الثانية عام ٦٧٢ هـ عن عمر يبلغ ثمانية وستين عاما وقد كان لمولانا ولدان هما : علاء الدين محمد وسلطان ولد ولم يبق لنا التاريخ أى عمل من أعمال علاء الدين محمد سوي قتله لشمس تبريزى ، وكان ابنه سلطان ولد الابن الاكبر من كبار الصوفية فى عصره وكان الجميع ينتظرون أن يخلف والده جلال الدين على الطريقة المولوية لكن عندما استخلف مولانا تلميذه حسام الدين جلبى ظل فى خدمته إلى أن مات حسام الدين عام ٦٨٤ هـ وخلفه على الطريقة المولوية ومن بين مؤلفاته الجديرة بالذكر " مثنوى " تناول فيه حياة مولانا جلال الدين وكأنه سيرة مختصرة ومات فى عام ٧١٢ هـ وهو فى السادسة والتسعين من عمره " . (١)

وقد اهتم شبلى بذكر الحياة الثقافية فى عصر جلال الدين من خلال العلماء المعاصرين له ، فعلى الرغم من أن هذا العهد كان من عهود الانحطاط والتخلق حيث انحدرت جحافل التتار تقتل وتنهب فى جميع بلدان العالم الإسلامي وبالرغم من ذلك ظل بلاط الإسلام العلمي فى أوج ازدهاره وقمة تطاوله وظهر فيه علماء عظام لهم دور بارز فى الثقافة الإسلامية بصفة عامة مثل " محقق الطوسى والشيخ سعدى وخواجه فريد الدين العطار والعراقى وشهاب الدين السهروردى والشيخ محيى الدين بن عربى وصدر الدين قونوى وياقوت الحموى وابن الأثير وابن الفارض وعبد اللطيف البغد ادى ونجم الدين الرازى والسكاكى وسيف الدين الآمدى وشمس الأئمة كروري والمحدث ابن الصلاح وابن النجار وضياء الدين بن البيطار وابن الحاجب وابن القفطى وشاه بو على قلندر والزملكاني وغيرهم وبرغم زوال حكومات الممالك إلا أن العلم والفن قد تضاعفت حدودهما ففى هذا العصر قام المحقق الطوسى بترتيب علم الرياضيات ترتيبا جديدا وكتب ياقوت الحموى " قاموس الجغرافية واكتشف ضياء بن البيطار كثيرا من الأدوية الجديدة وأوصل سعدى الغزل إلي قمته وأسس ابن الصلاح قواعد فى أصول الحديث وأتم السكاكى فن البلاغة وقد أجمعت كتب التذاكر على أن مولانا قد التقى بالشيخ محبى الدين أكبر فى دمشق كما التقى بالشيخ صدر الدين القونوى ونجم الدين الرازى ويرجح شبلى أن يكون مولانا قد التقى بالشيخ سعدى الشيرازى الذى كان يأتي

---

(١) شبلى : سوانح مولانا روم : ٤٧ – ٤٨ .

إلى بلاد الروم لزيارة شيخه شهاب الدين السهروردى " (١)

وقد فصل شبلى القول فى أخلاق الرومى وعاداته ، وقد كان نموذجا للتواضع والأدب الجم وكان أكثر جلسائه من الفقراء والبسطاء وكان يحثهم على العمل وبذل الجهد والسعى وراء الرزق ويربأ بهم عن حياة الخمول والكسل والهروب إلي العزلة وقد بلغ درجة إخلاصه لمبادئه أنه لم يكتب إهداء لأحد الملوك فى عصره ، كما لم يسع إلي بلاط أحد منهم ولم يمدح ملكا قط ، وكان الرومى قد جاء إلى قونية فى عهد السلطان علاء الدين كيقباد وبعد وفاته تولى ركن الدين الحكم إلا أن السلطة الحقيقية كانت فى يد معين الدين پروانه وهناك إشارات عديدة فى كتابه " فيه ما فيه " إلي أن هذا الوزير القدير كان يحضر مجالس علم الرومى ويجلس بين يديه كالتلميذ أمام أستاذه . ويعيب شبلى على كتاب التذاكر عدم ترتيب أخلاق مولانا وعاداته وإفراد عناوين خاصة لذلك فجاءت رواياتها بلا ترتيب ، وقد ذكر شبلى عدة روايات عن أخلاقه وعاداته يقول " لقد زاد مولانا عن الحد فى المجاهدة والرياضة الروحية وقد لازمه سبه سالار نحو عشر سنوات لم يره مرة واحدة فى ملابس النوم إذا كان قليلا ما ينام وإن نام فإنه ينام وهو جالس وعندما يغالبه النعاس كان يسند رأسه على الحائط قليلا ثم يعود إلي الانصراف إلى الذكر والعبادة ، وكان يصوم معظم الأيام وعندما يأتي للصلاة كان يستغرق فيها تماما وذات مرة كان مولانا يصلى في يوم من أيام الشتاء القارس وأخذ فى البكاء حتى ابتلت لحيته ووجهه بالدموع التي تجمدت من شدة البرد ورغم ذلك واصل الصلاة على هذه الحالة !! وكان قانعا زاهدا يرفض الذهاب إلى بلاط السلاطين " (٢) وقد ذكر شبلى العديد من القصص والروايات التي لا يتسع المجال لذكرها وهى قصص منقولة فى الغالب من كتب التذاكر مثل : " مناقب العارفين " و " رسالة سپه سالار " .

وبدأ شبلى الجزء الثاني من " سوانح مولانا روم " بذكر مؤلفات جلال الدين الرومي وهى بالترتيب : - (١) كتاب " فيه ما فيه " وهو " مجموعة من الرسائل التي كان يرسلها مولانا جلال الدين إلي معين پروانه من وقت لآخر وقد فقد هذا الكتاب وقد ذكره سبه سالار فى رسالته ضمنيا وعندما طبع مولانا مختارات مختصرة من ديوانه عام

---

(١) شبلى : سوانح مولانا روم : ٥٠ - ٥٢

(٢) شبلى : سوانح مولانا روم : ٥٤ - ٦٥ .

١٣٠٩ هـ في أمر نسر كتب في نهايته أن هذا الكتاب يحتوي على ثلاثة آلاف سطر"(١) والحقيقة أن شبلي أخطأ في وصف هذا الكتاب بأنه مجموعة " رسائل بينما هو مجموعة أحاديث ومواعظ تحتوى على أفكار الرومي وفلسفته في الحياة وطبع لأول مرة عام ١٩٢٨ م باهتمام مولانا عبد الماجد دريا بادى ، ثم طبعة بديع الزمان فروزان في طهران عام ١٩٥٠ م وهناك كتابان نثريان لم يذكرهما شبلي وهما " المجالس السبعة " وهو عبارة عن خطب ومواعظ و " الرسائل " وهو مجموعة من الرسائل .

ويري الدكتور كفافي أن كتاب " فيه مافيه " يشتمل على مجموعة من أحاديث جلال الدين ومحاوراته ومواعظه . وهو كتاب ذو أهمية كبيرة إذ أنه ينطوي على كثير من الأفكار والآراء التي صاغها الشاعر في منظومته الكبري " المثنوى " والظاهر أن هذه المجالس قد سجلها المريدون من أستاذهم بعد أن أصبح صوفيا عارفا وتخلى عن الفقه والتدريس (٢)

وقد قام الدكتور السباعي محمد السباعي ببحث مسهب عن هذا الكتاب ويرى أنه " كتاب أحاديث مولانا ألقاها على مريديه ومستمعيه وهي مجموعة ما قيده زواره وما سجله الذين حضروا مجالسه وسمعوا إجاباته – عما وجه إليه من الأسئلة – التي كانت موشحة بالآيات والأحاديث وتفسيره لها إذا لزم الأمر ولا بد أن تكون هذه النصوص التي سجلها المستمعون قد خلط بعضه ببعض وربما عرضت على جلال الدين فهذبها ثم بيضت واستوت كتابا .

ويرى بديع الزمان أن هذا الكتاب دون كاملا بعد وفاته ولهذا لا يمكن أن يكون جلال الدين هو الذى أطلق هذا الأسم عليه ولعل ما يؤيد هذا هو اختلاف الأسماء التي أطلقت عليه . أطلق عليه " الأسرار الجلالية " كتاب النصائح " و " فيه ما فيه " وصار هذا الأخير علما على الكتاب ومن الجائز أن يكون اسم الكتاب كان في البداية " المقالات أو المعارف ثم أسماه أحد المعجبين بمحيي الدين هذا الاسم اقتباسا من القطعة التي وردت في الفتوحات المكية :-

---

(١) المرجع السابق : ٥٤ - ٦٥

(٢) محمد عبد السلام كفافي . جلال الدين الرومى فى حياته وشعره . ط ١. دار النهضة العربية . ١٩٧١ ص ٣٩ ٤٠

كتاب فيه ما فيه ... بديع فى معانيه

اذا عاينت ما فيه ... رأيت الدريحويه [1]

(٢) الديوان :

إلى جانب المثنوى نظم جلال الدين مجموعة من قصائد الشعر ضمنها ديوانه المعروف باسم ديوان شمس تبريزي . يقول الدكتور عزام "ديوان شمس الدين التبريزى فن آخر من النظم هو قصائد متفرقة كل واحدة مستقلة عن الأخريات ، أعني أنها نظمت للإبانه عما جال فى ضمير الشاعر حين نظمها ، واختير لها وزن خاص وقافية . ولم يرد أن تكون مقدمة لمنظومة أخرى أو مكملة لها ، وإن كانت المعاني متشابهة متقاربة أو متماثلة . وهى فيض فى العشق والفناء وغيرها من المطالب العالية فى نحوسته وأربعين ألف بيت . والديوان قصائد قصيرة يغلب فيها فورة الشعر وخياله . فهو من هذه الناحية أعلى من المثنوى وأدق وأدخل فى الشعر ويكثر فيه الرمز ويوجود فيه التصوير ويعني كذلك بالصناعة اللفظية أحيانا ، ويردف القافية ويلتزم مالا يلزم" . [2]

وإن ديوان شمس تبريزى ليس على درجة واحدة من حيث اللفظ والفصاحة وهو أيضا متنوع من حيث المعني وقوة المشاعر والأحاسيس والواقع أن جماله فى خروجه على النغمة الواحدة وذلك التنوع والتلون في روح جلال الدين ، ذلك التلون الذى يجعل الديوان يبدو كسفينة بغير مرساة تهتز وتتأرجح . [3]

ويحتوى على " خمسين ألف بيت شعر تقريبا ويسمي ديوان شمس تبريز لأن الرومي تخلص فى معظم غزلياته بشمس تبريز وقد انتشر هذا الخطأ بين العوام لأن اسم شمس تبريز مكتوب على غلاف الديوان "[4] ويقتصر الديوان على فن الغزل فقط فلا يضم القصائد والقطع وغيرها من فنون الشعر الأخري ، وقد خلا شعر مولانا من المدح الذى ابتلى بها شعراء آخرون معاصرون له .

---

(١) السباعى محمد السباعى : جلال الدين الرومى وكتابه فيه مافيه . رسالة ماجستير مخطوطة . مكتبة جامعة القاهرة برقم : ٦١٥ .

(٢) عبد الوهاب عزام : فصول من المثنوى ص : ٢٤ – ٢٥

(٣) مريم محمد زهيرى : الله والإنسان فى ديوان شمس تبريزى . رسالة دكتوراه مخطوطة بجامعة القاهرة ١٩٧٨ م ص : ٣١ .

(٤) شبلى : سوانح مولانا روم . ٦٨ – ٧٠

ويذكر الدكتور كفافى أن هذا الديوان يشتمل على غزليات وقصائد صوفية يبلغ عددها ٣٥٠٠ قطعة نظمت فى بحور متنوعة ويبلغ عدد أبيات الديوان فى أقدم النسخ الخطية المعروفة نحو ٤٣ ألف بيت وذلك حسب إحصاء قام به فروز انفر .(١)

وكما رأينا فإن هناك تضاربا فى أعداد أبيات الديوان . يقول الدكتور السباعى محمد السباعي أن " عدد أبيات الديوان محل اختلاف بين الباحثين فقد أوصل المتقدمون عدد الأبيات إلى ثلاثين ألف بيت والنسخة الخطية تحتوى على أعداد تتراوح بين ٥٠ ألف بيت والنسخة الخطية تحتوى على أعداد تتراوح بين ٥٠ ألف بيت واربعين ألف بيت وتبلغ عدد أبيات الديوان المطبوع خمسين ألف بيت وقد طبع الديوان أخيرا ويقع فى قسمين مجموع غزلياته ٣٢٤٠ غزلية وتختلف الغزليات فى الطول والقصر فيقع بعضها فى حدود خمسة أبيات وبعضها فى حدود خمس وأربعين بيتا وبعضها يقع فى ثلاثة أبيات فقط ويقول آربرى أن الديوان يقع فى ٣٧٤ ورقه فى كل صفحة ٢٧ بيتا.(٢)

وحسب إحصاء دقيق فإن هذه الغزليات تتجاوز ٢٣٠ مائتين وثلاثين غزلية ولهذه الغزليات علامات تميزها وهي على النحو التالى : -

١ - عدد هذه الغزليات مطابق للأعداد التي حددها أدباء الغزل فى حين أن مولانا تجاوز كثيرا العدد المحدد وتصل إلى القصائد المطولة .

٢ - مضامين هذه الغزليات ليست جديدة مبتكرة وإنما هى تكرار لأفكار السابقين علي خلاف غزليات مولانا التي تتضمن المعاني البديعية والمضامين الجديدة .

٣ - يفيد قائل هذه الغزليات بالاصطلاحات الصوفية مثل الكثرة والوجود والجمع والفرق والمطلق والمقيد وأفكاره تسير على أساس أفكار محيى الدين بن عربى فى حين أن غزليات مولانا نادرا ماتحتوى أمثال هذه المصطلحات وتظهر حقائق الحب والتصوف فى صورة أمثال وعبارات شعرية خاصة به .

٤ - ألفاظ هذه الغزليات منقحة مختارة وطريقة تركيبها مشابهة لسليقة المتأخرين ليس فيها وجد وهيام على العكس فى ذلك تتضمن أشعار جلال الدين الغث والثمين

---

(١) محمد عبد السلام كفافى : جلال الدين الرومي فى حياته وشعره . ٤٠ - ٤١ .

(٢) السباعي محمد السباعي : جلال الدين الرومي وكتابه فيه مافيه . ٣٩ - ٤٠ .

وتمنح القارئ حالة من الوجد والعظة .

٥ – أوزان هذه الغزليات خفيفة ومناسبة كما ينبغي أن يكون الغزل فى حين أن غزليات مولانا فيها الأوزان الخفيفة والثقيلة والقصيرة والطويلة بعضها مناسب للغزل وبعضها يتناسب مع القصيدة .

٦ – فى مقطع كل غزلية ذكر الشاعر لفظ شمس بمفرده إلا فى ثلاثة مواضع فقط أضاف إليها لفظ مشرقى فى حين أن مولانا لم يذكر لفظ شمس بمفرده وانما ذكر التخلص باسم شمس تبريز أو شمس الدين أو شمس الحق أو شمس الحقائق وكان يذكر دائما فى البيت الأخير أو الأبيات المتقدمة لفظ " خمش كن " أو " خاموش " ، " بس كن " ، و " خمش كردم " . (١)

وقد لخص شبلى خصائص غزليات مولانا جلال الدين فى عدة خصائص هى :-

١ – نظم مولانا أكثر غزلياته فى حالة خاصة ولهذا يبين كل حالة من هذه الحالات فى غزلية منفردة ولم يستقل كل بيت كبقية الغزليات الأخرى ، فقد أدى على سبيل المثال غزلية وصف فيها حالة الغياب فى الصلاة عن الذات ، كما نظم غزليات عديدة فى حقيقية التوحيد .

٢ – إن ما نجده من قوة وحماس فى غزليات مولانا قلما نجدها فى أشعار الآخرين فقد جبلت طبيعته على الحماس الفطري غير المصطنع وقد ضاعف اتصاله بشمس تبريزى من هذا الحماس الملئ بالحب والوجد .

٣ – من أكبر الخصائص المميزة لشعر مولانا انه يستطيع أن يصور حماس المحب وهو فى ذروة نشوته بطريقة تبدو وكأنها ماثلة أمام العين .

٤ – هنا مقامان من مقامات الصوفية على النقيض فيما بينهما وهما : الفناء والبقاء فيغلب على السالك فى مقام الفناء الخضوع والفقر والتواضع على العكس من مقام البقاء الذى يفيض بالعظمة والجلال على السالك ويغلب على الرومى المقام الثانى حيث نجد فى شعره الجلال والكبرياء والسمو وهذا ما لا نجد فى أشعار صوفى آخر.

---

(١) المرجع السابق : ٤١ – ٤٢ .

٥ – ينكر عمر الخيام فى رباعياته وجود الروح والميعاد والجزاء والعقاب أما مولانا فقد رد علي هذا النوع من القضايا بأسلوب شعرى(١).

وبالنسبة لعدم اعتقاد الخيام فى الثواب والعقاب يقول الصافى النجفى «كان الخيام متشائما وهذا التشاؤم نتيجة اعتقادية لفلسفته التى تجر حتما إليه لانها تميت الأمل وتدخل على القلب اليأس، ومن كان يعتقد أن لا فائدة من أعماله وأن لا ثواب ولا عقاب عليها فى عالم غير هذا العالم فلا مندوح له عن الاستسلام إلى الطيرة والارتماء فى احضان التشاؤم»(٢).

وسوف نستعرض فيما يلى آراء الخيام كما تبدو من رباعياته فى مسائل الجزاء والعقاب والبعث والميعاد والروح وهى مسائل أنكرها الخيام.

١ – **الجزاء والعقاب:** سلك الخيام طريق الفلاسفة اليونانيين فى الفلسفة الإلهية وهو معتقد لها هو الخير المحض الذى لا يصدر منه الشر وقد نفى وقوع العذاب والعقاب مدفوعا بعقيدة الجبريين(٣) ولذلك قال:

– تفضلت قائلا: إنى سوف أعذبك، وأنا لم أخش قط هذا القول.

– فإن المكان الذى أنت فيه لا يكون فيه عذاب، وأين المكان الذى أنت لست فيه(٤).

٢ – **البعث والميعاد** : كان الخيام منكرا للبعث. وقد فهمنا ذلك عند بحثنا عن مصادر فلسفته إذ برهنا على أنه كان متأثرا بالعقائد الباطنية. وقد صرح فى كثير من رباعياته بأن فكرة البعث والمعاد وهم وخيال فلا حقيقة لها والذى يخاطب الناس بقوله: «أنت لست ذهبا فإذا دفنوك أخرجوك وأنت ذهب أيضا» هو جاحد لعقيدة الحشر والمعاد.

---

(١) شبلى: سوانح مولانا روم: ٧٣ – ٨٠.

(٢) السيد أحمد الصافى النجفى: رباعيات عمر الخيام. بغداد. (ب.ت): ٢٤.

(٣) أحمد حامد الصراف: عمر الخيام. ط٢. مطبعة الشعب. بغداد. ١٩٤٩م ص: ١٠٥–١٠٦.

(٤) كفتى كه عذاب خواهم فرمود
هركز من ازين خبر هراسم نفزود
جائى كه توئى عذاب نبود آنجا
وآنجا كه تونيستى كجا خواهد بود
أحمد حامد الصراف: عمر الخيام. ١١٣ – ١١٥).

٣ – **الروح**: ذكر عمر الخيام الروح غير مرة فى رباعياته لكننا لم نعلم أكان معتقدا فى خلود الروح أم لا؟ يقول:

– أفق فإنك ستفارق روحك، وستفنى وراء ستار الأسرار.

– اشرب الخمر فإنك لا تدرى من أين أتيت، وأسعد فإنك لا تعلم إلى أين تذهب(١).

٣ – المثنوى:

كلمة مثنوى تعنى ذلك النظم الذى يعرف بالمزدوج فى العربية وهو يعتمد فى التفقيه على توحيد القافية بين شطرى كل بيت من أبيات المنظومة فكل بيت من الأبيات تكون له قافيته المستقلة وبهذا تتحرر المنظومة من القافية الموحدة التى طالما عاقت شعراء العرب عن نظم المطولات فهذا التعدد فى القوافى هو الذى مكن شعراء الفرس من نظم الملاحم المطولة على الأوزان العربية والانطلاق بها إلى أبعد مدى أرادوه. وقد سمى جلال الدين كتابه هذا «المثنوى» وينقسم هذا الكتاب إلى ستة مجلدات تضم نحوا من خمسة وعشرين ألف بيت ولا تتصل تسمية الكتاب بموضوعه وإنما بشكل قوافيه، فهو تسميه شكلية بحته. والإيرانيون يعظمون هذا الكتاب إلى أبعد الحدود وقد بالغوا فى تعظيمه حتى سموه «قرآن پهلوى» أى قرآن الفارسية(٢).

وفى مقدمته العربية على المثنوى يقول الرومى «هذا كتاب المثنوى، وهو أصل أصول الدين فى كشف أسرار الوصول واليقين وهو فقه الله الأكبر، وشرع الله الأزهر وبرهان الله الأظهر مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، يشرق إشراقا أنور من الإصباح وهو جنان الجنان ذو العيون والأغصان، منها عين تسمى عند أبناء هذا السبيل سلسبيلا، وعند أصحاب المقامات والكرامات خير مقاما وأحسن مقيلا... والله يرصده ويرقبه، وهو خير حافظا وهو أرحم الراحمين. وله ألقاب أخُر لقبه الله بها واقتصرنا على هذا القليل والقليل يدل على الكثير والجرعة تدل على الغدير والحفنة تدل على البيدر الكبير»(١).

والمثنوى منظومة صوفية فلسفية عظيمة، تحوى خمسة وعشرين ألفا وسبعمائة بيت

---

(١) درياب كه از روح جدا خواهى شد
دربردهء اسرار فنا خواهى شد
مى نوشي ند انى زكجا آمدهء
خوش باش نداني بكجا خواهى شد

(٢) محمد عبد السلام كفافى: جلال الدين الرومى شاعر الصوفية الأكبر. بيروت. ١٩٦٣م ص: ١٥.

فى ستة أجزاء والجزء السابع الذى تشتمل عليه بعض نسخ الكتاب منحول لا يشبه كلام جلال الدين. وقد خلت من الجزء السابع النسخ القديمة. وكتب سلطان ولد ابن جلال الدين خاتمة الكتاب عقب الجزء السادس.

أما تاريخ نظم المثنوى فيحدثنا الناظم فى مقدمة الجزء الثانى أن نظم المثنوى تأخر مدة لغياب حسام الدين وأنه يستأنف النظم سنة ٦٦٢هـ وقد استمر ينظم الأجزاء الخمسة حتى توفى سنة ٦٧٢. فيكون لكل جزء سنتان، فإذا قدرنا أن الفترة بين الجزئين الأول والثانى كانت سنتين كما يروى، وأن الجزء الأول نظم فى سنتين، فقد بدأ الشاعر الصوفى ينظم منظومته الخالدة سنة ٦٥٨هـ وسنه ٥٤ سنة. ونظم الكتاب بدعوة من صديقه حسام الدين چلبى ويكرر هذا فى أول كل جزء، معلنا أن حسام الدين يوحى إليه نظم الكتاب، وأنه يسير فيه ببركة هذا الرجل وتشويقه ويكفى أن نعرف أنه ترك النظم حين غاب حسام الدين فى الفترة بين الجزأين الأول والثانى وأنه سمى الكتاب فى فاتحة الجزء السادس «حسامى نامه» وكان جلال يملى وحسام يكتب وكان أحيانا يقطعان الليل كله إنشاء وكتابة فمكانة حسام الدين من المثنوى تشبه بعض الشبه مكانة شمس الدين التبريزى فى الديوان. وقد قسم جلال الدين كتابه الذى سماه المثنوى ستة أقسام، وصدر كل قسم بمقدمة منثورة قصيرة. من هذه المقدمات الست ثلاث عربية هى مقدمات الأجزاء الأول والثالث والرابع والأخريات فارسية(٢).

وقد نظم مثنوى جلال الدين على وزن الرمل المسدس المحذوف وتتكرر تفعيله (فاعلاتن) ست مرات فى كل بيت من الأبيات وقد نظم الرودكى كليلة ودمنة وأبو شكور البلخى «آخرين نامه» بهذا الوزن(٣).

والمثنوى أهم أعمال جلال الدين قاطبة ويحتوى على ستة مجلدات وترجع سبب تسميته إلى الفن الشعرى الفارسى المعروف بالمثنوى ويقابل «المزدوج» فى اللغة العربية ويصلح هذا الفن الشعرى لنظم الملاحم والقصص التارخية مثل «الشاهنامه» للفردوسى و«حديقة الحقيقة» لسنانى و«منطق الطير» لفريد الدين العطار. ويرى شبلى أن «هناك العديد من الدلائل التى تشير إلى أن مولانا جلال الدين قد استلهم كتابات العطار فى

---

(١) جلال الدين الرومى: مثنوى معنوى. بريل ليدن - ١٩٢٥م ص: ١.

(٢) عبد الوهاب عزام: فصول من المثنوى ص: ١٣-١٥.

(٣) السباعى محمد السباعى: جلال الدين الرومى وكتابه فيه ما فيه. ص: ٢٤.

المثنوى وأنه وضعها أمام عينيه كمثال يحتذى وكما سبق وذكرنا أن سنائى قد أهدى لمولانا نسخة من كتابه «أسرار نامه» وكان مولانا فى السادسة من عمره وقال لأبيه أنه سوف يكون ذا شأن عظيم وقد أكد مولانا هذا بقوله:

كـان العطار روحـا وسنائى عـينينا ونحن جـئنا في إثر العطار وسنائى(١)

وقد ذكر أصحاب التذاكر أن جلال الدين قد نظم المثنوى بناء على طلب مريده المقرب حسام الدين جلبى الذى طلب منه أن ينظم مثنويا على شاكله «منطق الطير» يكون دستورا له ولطريقته، وقد أشار الرومى إلى مريده حسام الدين فى جميع أجزاء المثنوى عدا الجزء الأول»(٢).

و«تختلف النسخ الخطية التى عثر عليها للمثنوى فى عدد أبياتها، وتعتبر المخطوطات التى عثر عليها المستشرق نيكلسون والتى طبع على أساسها بعد فحصها ومقارنتها بالنسخ الخطية والمطبوعة أصح النسخ وأوثقها وعدد أبياتها ٢٥,٦٣٢بيتا (خمسة وعشرين ألفا وستمائة واثنين وثلاثين بيتا). ويوصل دولتشاه عدد الأبيات إلى (٤٨,٠٠٠) بيت ويقول الدكتور السباعى محمد السباعى «ولا ندرى على أية أساس قدر هذا العدد، من الجائز أن يكون عثر على نسخة خطية أخرى، أو نسخة أضاف عليها النساخ الكثير(٣).

ويقول شبلى «إن المثنوى نال شهرة عريضة لم يحظ بمثلها كتاب فارسى آخر حتى اليوم وقد ذكر صاحب «مجمع الفصحا» أن إيران بها أربعة كتب مشهورة هى:

كَلستان وبوستان ومثنوى مولانا جلال الدين وديوان حافظ، وعندما نقارن بينها يتفوق المثنوى عليها لشهرته التى لم يبلغ إليها كتاب آخر وقد ذكر صاحب كتاب «كشف الظنون» عدد كبير من الشارحين للمثنوى فالشروح التركية لمولوى مصطفى بن شعبان وسودى والشيخ إسماعيل انقروى وكمال الدين خوارزمى وطريفى حسن جلبى

---

(١) عطار روح بود، سنائى دوجشم ما * ما ازيس سنائى وعطار آمديم

(٢) شبلى: سوانح مولانا روم: ٨٧ – ٨٨.

(٣) السباعى محمد السباعى: جلال الدين الرومى وكتابه فيه ما فيه: ٢٦.

والشروح الفارسية لمحمد أفضل الله آبادى وولى محمد وعبد العلى بحر العلوم»[1].

ويرى شبلى أن «شهرة المثنوى ترجع إلى أنه جاء بعد كتب شهيرة فى التصوف والسلوك مثل: «جام جم» لأوحدى المراغى المتوفى عام ٥٥٤هـ و«مصباح الأرواح» لأوحدى الكرمانى المتوفى عام ٥٣٦هـ و«حديقه» سنائى و«منطق طير» فريد الدين العطار بينما كُتب الكتابان الأخيران باللغة الفارسى التى يفهمها الإيرانيين نجد أن مثنوى جلال الدين كتب بالفارسية فى مجتمع يتكلم التركية وهنا يكمن الإعجاز، وفى حين لا نجد أى مسائل وقضايا معقدة ومتشابكة فى الحديقة ومنطق الطير وأنهما يطرحان الأفكار بطريقة سهلة يمكن أن يفهمها الأطفال، نجد أن أفكار التصوف والسلوك فى المثنوى تصعب على أفهام العلماء أنفسهم بل إن بعض المقامات لم تُحل رموزها حتى الآن على الرغم من وجود شروح عديدة لها ومع هذا تردد أشعار المثنوى على السنة الأطفال والوعاظ على السواء وعرف بأنه «قرآن باللغة الفارسية»[2].

ويعد المثنوى مخزنا لرموز «الشريعة» وفى نفس الوقت يعتبر كنزا ثمينا لأسرار «الطريقة» لهذا كان من الطبيعى أن يقوم شبلى ببحث مختصر يوضح فيه مكانة الرومى فى تاريخ الشعر الصوفى والأعمال الجليلة التى أضافها إليه. وقد نجح الرومى فى التوفيق بين الشريعة والطريقة فى المثنوى حيث اطلع أولا على جميع مسائل الشريعة فى الفقه وعلم الكلام والعلوم المتداولة والشائعة ثم احتواه الفيض الإلهى فاستفاد من نعم الوجد والكشف. ويتضح لنا بعد إمعان النظر فى المثنوى أن الرومى حاول بطريقة منطقية غاية فى الدقة أن يزيل التباعد بين الشريعة والطريقة ويعلم أصحاب الشريعة أنهم لن ينالوا الكشف طالما لم يلتزموا بأحكام الله والتكاليف الشرعية لأن العمل بأحكام الشريعة هو منبع راحة الصوفى وسبب استقراره، ومن ناحية أخرى ألقى الرومى الضوء على مقولة أصحاب الطريقة الذين نادوا بأن «التصوف هو الاسم الآخر (الوجه الآخر) للشريعة ورفض هذا الرأى وخطأه وأكد أن الصوفى يصبح عاشقا بالمعنى الصحيح بعد إدراك الحقيقة عن طريق الكشف والوجدان كما أثنى على جوهر العشق فى كل موضع.

ونجح شبلى فى عقد مقارنة بين المثنوى وحديقة الحقيقة ليثبت تفوق الرومى، ونقل

---

(١) شبلى: سوانح مولانا روم: ٩٢ - ٩٣.

(٢) المرجع السابق: ٩٤ - ٩٦.

عدد من قصص المثنوى «ففى قصة الأسد والوحش يجرى الرومى حوارا هادفا ليوضح معنى السعى والتواكل ويعلى من قيمة السعى والعمل»(١).

وقد احتوى المثنوى على كثير من رموز الحضارة الإسلامية وكذلك على القرآن والحديث وقصص الأنبياء والأساطير والقص الشعبى والفلسفة والكلام ويتسم أسلوبه بالدقة فى التصوير وتحليل المواقف للوصول إلى المغزى الأخلاقى للقصة.

وقد تناول شبلى موضوع تصوف الرومى بطريقة مختصرة جدا ولم يستطع أن يبين بجلاء موقع الرومى فى الشعر الصوفى، وقد اعترف شبلى بأنه ليس لديه معرفة تامة بالتصوف ويعتبر المثنوى من روائع «علم الكلام» وهذا رأى غير تقليدى ويخالف به معظم ما استقر فى أذهان الناس من أن «المثنوى كتاب» تصوف وطريقة «بل هو من الكتب العمدة فى العقائد وعلم الكلام وقد أسس الغزالى الذى يفوقها عمقا واستدلالا لذا كان من الضرورى عرض المثنوى أمام القوم من حيث كونه ضمن علم الكلام»(٢).

وحاول شبلى أن يستلهم من المثنوى بعض القضايا فى علم الكلام والفلسفة والتصوف ويؤكدها بشواهد شعرية من المثنوى وسوف نتعرض فيما يلى لهذه القضايا باختصار:

١ - **ذات الله** : يرى شبلى أن هناك طُرقا عديدة لإثبات ذات الله وأن لكل طريقة جماعة خاصة بها وأول هذه الطريقة هى الاستدلال بوجود آثاره فى الخلق وهى طريقة خطابية تتناسب مع العوام حيث يبدو العالم أمامهم يسير وفقا لتنظيم محكم فى حركة الليل والنهار والنجوم والكواكب والشموس وظهور النباتات وغيرها من العلامات الدالة على قدرة الذات الإلهية، والطريقة الثانية خاصة بالفلاسفة الذين يؤمنون بضرورة وجود صانع أوجد هذا النظام فى الكون وقد اهتم ابن رشد بهذه الطريقة، والطريقة الثالثة خاصة بمولانا جلال الدين فهو يرى أن العالم ينقسم إلى نوعين: نوع مادى مثل: الحجارة والأشجار وغيرها، وغير مادى: مثل الأوهام والتصورات وتقل المادة فى العلة بالنسبة للمعلول ويكون المعلول مجردا عن المادة وليس له صورة خاصة، ولو تأكدنا من استدلال المتكلمين نجدهم يركزون على أن الله هو علة العلل ولا يهتمون بكونه أشرف الموجودات وأنه منزه برئ عن المادة وعلى

---

(١) المرجع السابق: ١٣١ - ١٣٦.

(٢) شبلى: سوانح مولانا روم: ١٤٢ - ١٤٣.

وعلى العكس من هذا نجد استدلال الرومى يؤكد على اثبات ذات الله وصفاته كذلك وهو استدلال يختلف عن استدلال الأشاعرة الذى ينتهى بضرورة أن يكون هناك أى نوع من ترجيح العلة على المعلول»[١].

٢ - **النبوة**: تعد مسألة «النبوة من أهم قضايا علم الكلام ولهذا نجد البحوث الطويلة فى كتب علم الكلام تدور حول هذه القضية وقد اهتم مولانا جلال الدين بهذه القضية وبحث الأمور المتعلقة بالنبوة مثل: حقيقة النبوة وحقيقة الوحى ورؤية الملائكة وكيفية التصديق بالنبوة وحقيقة المعجزات أولا؟»[٢].

٣ - **المعاد**: يرى شبلى أن هذه المسألة «من أهم مسائل العقائد وأن الرومى شرح هذه المسألة بطريقة مختلفة عن باقى المتكلمين فيرى أن الروح تصير جوهرا نورانيا عند انفصالها عن الجسد، وقد رد الرومى على الذين ينكرون المعاد وأكد على وجود المعاد والبعث ويرى الرومى أن الإنسان كان جمادا فى بداية الخلق ثم صار نباتا بعد فناء الجمادية ثم أصبح حيوانا بعد فناء النباتية ولهذا لا يبدو مستبعدا أن تفنى هذه الحالة أيضا وتبدو فى صورة أخرى جيدة وهذه هى الحياة الثانية أو المعاد أو القيامة وأن فناء أى شىء لا يعنى أن ينعدم تماما من الوجود بل إنه يتطور من أدنى حالة إلى أسمى حالة ويُعد استدلال مولانا جلال الدين هذا مطابقا تماما للعلم الحديث الذى أكد أن أى شىء يخلق لا يفنى مطلقا بل يتحول إلى صورة أخرى. وقد قارن شبلى بين فلسفة مولانا فى هذه القضية وبين فلسفة دارون ونظريته فى الارتقاء»[٣].

٤ - **الجبر والقدر**: ناقش شبلى رأى مولانا جلال الدين فى هذه المسألة وقد قدم الرومى عدة دلائل قوية على أن الإنسان مخير فى أعماله ورد بقوة على المنكرين للاختيار وفند مقولتهم التى يعتمدون عليها وهى «ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» وبهذه المقولة يؤكدون على أن الإنسان مجبر على أعماله التى يقوم بها.

وتناول شبلى قضايا أخرى تطرق إليها الرومى فى المثنوى مثل: التصوف ومقامات السلوك والتوحيد ووحدة الوجود.

---

(١) شبلى: المرجع السابق: ١٤٦ - ١٥٥.

(٢) المرجع السابق: ١٦٣ - ١٨٨.

(٣) المرجع السابق: ٢٠١ - ٢٠٨.

وعلى الرغم من أن الاتجاه الصوفى هو المسيطر على شعر جلال الدين إلا أنه كان فى معظمه يتطرق إلى حياة الإنسان ويهتم بمشكلات الفرد والمجتمع فى محاولة لتشخيص العلة وتحديد الدواء، وكان الرومى من أعظم الشعراء الذين يتجلى فى شعرهم عظمة الحضارة الإسلامية وقد اهتمت أوربا بشعره وترجمته إلى لغاتها وقد تميز تصوف الرومى بالنوع العملى وليس السلبى وكانت الإنسانية موضوعه الرئيسى.

obeikandl.com